جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

قضايا إسلامية
سلسلة تصدر
غرة كل شهر عربى

الجذور التاريخية والجسور الحضارية

بين الإسلام والغرب

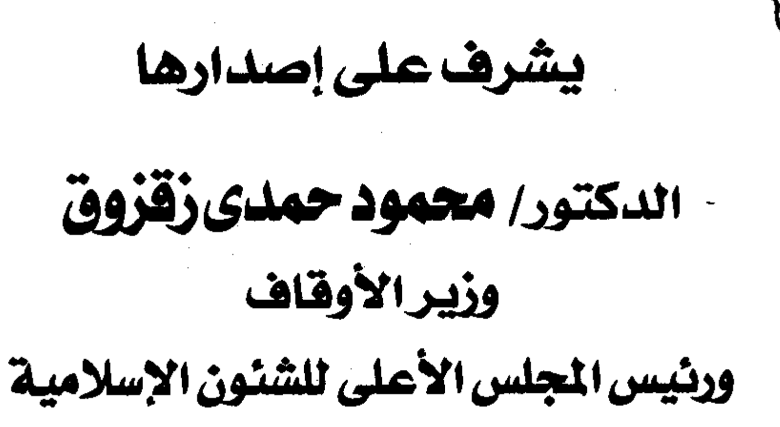
[القسم الثانى]

أ. د. محمد محمد أبو ليلة

[العدد ٧٠]

القاهرة

ذو الحجة ١٤٢١هـ - مارس ٢٠٠١م



يشرف على إصدارها

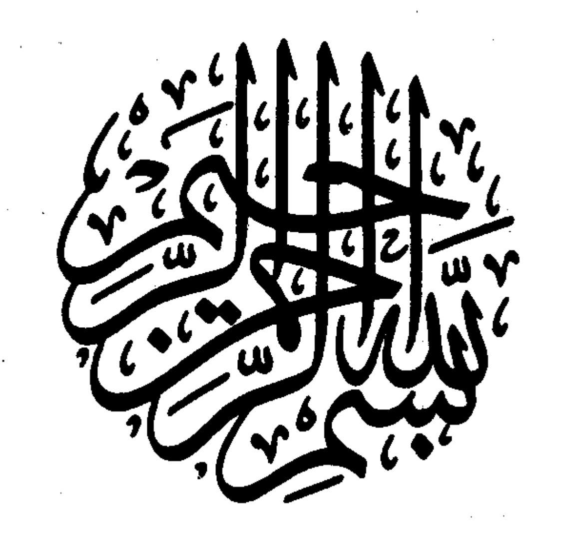
الدكتور/ **محمود حمدى زقزوق**

وزير الأوقاف

ورئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الدكتور/ **عبدالصبور مرزوق**

نائب رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية



مقدمة

يقوم هذا الكتاب على بحث كنت قد أعددته وألقيته فى المؤتمر الدولى التاسع للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية والمنعقد بالقاهرة فى الفترة من ٨ - ١١ ربيع الأول ١٤١٨هـ / ١٣- ١٦ يوليو ١٩٩٧م . وكاستجابة لطلب جمهور الحاضرين واستحثاث بعض الأساتذة الأعلام الذين أثنوا على هذا البحث قمت بتطويره وتوسيعه وإضافة الكثير من المادة العلمية الجديدة إليه مع الإشارة إلى أحدث المصادر فى هذا المجال .

يتناول هذا الكتاب علاقة الإسلام بالغرب وموقف الغرب من الإسلام ، وفيه أتتبع الجذور التاريخية لهذه العلاقة والجسور الحضارية التى ربطت بين المسلمين والغربيين وأبعاد كل من الصراع الدينى والسياسى ووسائلهما ، وكذلك التواصل الحضارى والتبادل العلمى والثقافى بينهما . هذا مع التركيز على الوضع الحالى للمسلمين فى أوروبا وعلى الموقف الغربى تجاه المسلمين والذى يتسم عموماً بالتوتر والتوجس ويصدر عن خوف مرضى وذلك بسبب تواجد المسلمين وتزايد عددهم فى أوروبا وأمريكا .

وفى هذا الكتاب أعرض مع التعليق بعض الكتابات والإصدارات الغربية التى ظهرت مؤخراً حول الإسلام والمسلمين ، وينبغى أن أوضح سلفاً صعوبة هذا الموضوع وامتداده وتشعبه وحساسيته وتعقيداته أيضاً ، وبالتالى فإنه

من الصعب أن أوفى هذا الموضوع حقه من جميع جوانبه ، فى كتاب واحد من هذا الحجم . وعلى أى حال فإننى سوف أحاول جاهداً أن ألم بأطرافه وأبين أبعاده وأهدافه بقدر المستطاع وبطريقة علمية وتحليلية تصل بين الحوادث المتفرقة وتجمع بين الحقائق المتناثرة وتصل إلى ما وراء الأحداث التاريخية من مقاصد وأغراض ، ملتزمين من جانبنا بالروح العلمية المجردة .

إن علاقة المسلمين باليهود والنصارى تقوم على أصول تاريخية ثابتة ، فقد وصفهم القرآن الكريم بأنهم أهل كتاب وبأنهم أمة موسى وأمة عيسى عليهما السلام .

وأنهم مؤمنون بأصل التوحيد والنبوات والمعجزات وقد أنزل الله تعالى عليهم التوراة والإنجيل هدى ونوراً وأمرهم بالعمل بما فيهما ، وأحل الله طعامهم ونكاح نسائهم للمسلمين ، وحكى القرآن قصص أنبيائهم وبعض صالحيهم وما جرى لهؤلاء الأنبياء مع أقوامهم .

كما حث الله تعالى المسلمين على أن يصلوا أهل الكتاب ويبروا بهم ما لم يكونوا مقاتلين .

يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين** ﴾[1] .

---

(١) الممتحنة : ٨ .

أما إذا كانوا محاربين فإنه يباح للمسلمين محاربتهم وصد عدوانهم ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون** ﴾[1] .

فأمر الله المسلمين بعدم ولاية غير المسلمين مشروط بإعلان الحرب وحمل السلاح عليهم .

ومع ذلك يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم** ﴾[2] .

قال تعالى هذا بعد أن أمر المسلمين بإعداد العدة للحفاظ على هيبة الدولة المسلمة .

هناك أصول دينية مشتركة بين المسلمين واليهود والنصارى يشهد بها القرآن الكريم وتؤكدها السنة النبوية الشريفة ويتخلل هذه الأصول المشتركة دقائق وتفاصيل لبعض الأشياء وبعض الحكم والأمثال والأحكام الشرعية والمبادىء الخلقية والسلوكية التى تضمنها الوحى السابق ولكن ينبغى أن نلفت إلى الاختلاف بيننا وبين اليهود والنصارى فى تفسير

---

(١) الممتحنة : ٩ .

(٢) الأنفال : ٦١ .

هذه الأصول المشتركة بين القران وكتبهم ، إذ أنهم يزعمون أن محمدا قد انتحل من هذه الكتب ، أما المسلمون فيعتقدون أن هذه الأصول المتفقة إنما هى بقايا مما استنقذه الله من تحريفاتهم وتعدياتهم على كلامه عز وجل ، ليكون ما استنقذه الله عز وجل ، دليلاً على وحدة الأصل ، وليكون حجة كذلك فى أيدى المسلمين على تحريفهم وعلى إنكارهم لنبوة محمد ﷺ .

المبادىء الخلقية والقيم الدينية من الأمور التى تجمعنا بالغرب النصرانى اللهم إلا ما دخل على النصرانية مما هو ليس منها كتحريم الختان وإباحة أكل لحم الخنزير الذى أحله لهم بولس فى رسائله ، وما أباحته العلمانية والقيم المادية فى الغرب فيما بعد ، كالحرية الجنسية ، وترخيص البغاء وغير ذلك مما هو خارج على تعاليم الأديان السماوية ، وعلى الرغم من هذا فقد ظلت الأصول الخلقية متينة وقوية ومتغلغلة فى نفوس عامة النصارى لأن تعاليم الأديان فيما يخص العقائد والأخلاق واحدة تقريباً ، فالزنا محرم فى الديانتين وغض البصر مأمور به بشدة فى القرآن والأناجيل ، والصدق والأمانة ونبل النفس ومكارم الأخلاق ، كلها نقاط التقاء بين النصرانية والإسلام أو هى تعاليم واحدة لأنبياء متعددين ، يقول النبى ﷺ : **[الأنبياء أبناء علات أمهاتهم شتى ودينهم واحد]** . والدين هو الطريقة والمنهج ، والعلات هن الضرائر .

ينبغى أن يكون معلوماً أننا نتكلم هنا عن التعاليم الدينية لا عن الممارسات الشاذة والخروج على هذه التعاليم ، وإلا ظلمنا الأديان والقيم الراسخة .

ولا يفوتنا أن نشير إلى الحدود الجغرافية المشتركة والتى تجمع أوروبا والدول الإسلامية وكذلك اللغة المشتركة ؛ فقد كانت هذه الدول تتكلم اللغة العربية كلغة علم وثقافة فى العصور الوسطى إلى جانب بعض اللغات واللهجات المحلية - حيث كانت اللغة العربية هى لغة العلماء والمفكرين والباحثين فى البلدان الأوروبية ، وعبر هذه اللغة نُقلت العلوم والخبرات الإسلامية بشكل عام إلى الدول الأوروبية .

وقد نهلت الشعوب الغربية من الحضارات الإسلامية عندما كانت فى أوج عظمتها سواء فى شكل بعثات كانت ترسلها إلى الأندلس أو بغداد أوغيرهما من الحواضر الإسلامية ، أو فى شكل وفود دبلوماسية وزيارات علمية ، أو فى شكل ترجمة للكتب العربية إلى اللغة اللاتينية .

ومن العوامل التى يجتمع عليها المسلمون والغربيون ظاهرة الزهد والتصوف وما يتصل بهما من مظاهر ، مثل الاحتفال بالأولياء ، الخلوة ، اتخاذ مظاهر معينة كعلامات مميزة لأهل الطريقة ، لها وجودها الظاهرى عند أهل الديانتين وينبغى أن ننبه هنا على أننا لا نقر واقعاً ، ولا نحكم على مثل هذه الطرق والاحتفالات بالصواب أو الخطأ أو بالبدعة أو التمسك بالعقيدة السلفية ، وإنما فقط نبحث عن السمات المشتركة فإن

للصوفية المسلمين طريقتهم المتميزة وأصولهم المستقلة ، ولهم كذلك عقائدهم وعباداتهم التى لا يمكن أن تنفصل عن الإسلام ، والقاسم المشترك لكل هو الزهد والتجرد والتفرغ للعبادة كل على طريقته ، ومن هذه السمات المشتركة الفلسفة والعلوم اليونانية التى نقلها العرب إلى اللغة العربية وطوروها وأضافوا إليها الشروح والتعليقات ونفخوا فيها من روح الإسلام والعروبة والتى أخذتها أوروبا فيما بعد عن المسلمين عن طريق الترجمة ، سواء المباشرة ، من اللغة العربية أو من اللغة العبرية إلى اللاتينية ؛ وقد أفادت كلاً من المسلمين والغربيين من التراث الرومانى والشرقى سواء عن طريق القنوات العربية الإسلامية مباشرة أو عن طريق الترجمة من اللغات الشرقية الأخرى ، تلتقى النصرانية مع الإسلام أيضاً وبصورة عامة فى محاربة الوثينة ، وإن كانت النصرانية تعتبر كل ديانة فى العالم غير النصرانية ديانة وثنية ، أضف إلى ذلك أن مفهوم الوثنية فى النصرانية غير واضح إذ أن مشكلة التثليث كانت وسوف تظل عقبة دون المفهوم الصحيح للتوحيد الذى جاء به كل الأنبياء ولا ننسى هنا ، ونحن نحاول إبراز السمات اللاهوتية أو الكلامية المشتركة أو المتقاربة ، بين الديانتين أن نشير إلى نزعة التسامى فى الديانة النصرانية على الديانات الأخرى وشعورها بالتفوق المطلق عليها فهى تعتبر الديانة اليهودية ديانة قديمة وحرفية وعنصرية وتعتبر كتبها " عهدا قديماً " مضى وانتهى ، وفى المقابل تعتبر

النصرانية وكتبها " عهداً جديداً " وتطلق على الكنيسة " القدس الجديدة " وهى لا تعترف بالإسلام كدين إلهى ولا بمحمد ﷺ كنبى مرسل ، وهذا الشعور بالتسامى يشكل السمة الرئيسة للحضارة الغربية . بل إن بعض النصارى قد غالى فقال إن الإسلام بدعة نصرانية كما سنذكره بالتفصيل والتدليل فى موضعه من هذا الكتاب .

ومن المشابهات بين النصرانية والإسلام القول بالبدعة ، يعنى الخروج على الأصل وهذه المشابهة عامة لا تعدو المنهج والتنظير ، أما الموضوع ذاته فمختلف تماماً .

فالبدعة فى نظر النصرانية هى الخروج على تعاليم الكنيسة ومقررات المجامع الكنسية ، وهذا يعنى الخروج على عقيدة التثليث والصلب والفداء والكفارة والتجسد وهى أمور لا يقرها الإسلام وربما ذهبنا أبعد من ذلك فقلنا إن هذه العقائد نفسها تعد بدعاً بالنسبة لرسالة المسيح - عليه السلام - الأصلية ، وإن هذه المعتقدات إنما ظهرت بعد مؤتمر نيقية عام ٣٨٤م الذى قرر فيه أغلبية الحاضرين اعتبار التثليث هو أصل العقائد The canonical Creeds وأن ما عداه بدع ينبغى أن تحارب وأن يحرم الخارجون عليها من حق التمتع بالانتماء إلى الكنيسة والجماعة النصرانية .

***

الباب السادس
نماذج من الكتابات الغربية
حول الإسلام والمسلمين
عرض ونقد

تتنوع الكتابات الغربية عن الإسلام بتنوع كتابها، فهناك الكاتب الذى يصدر عن نزعة سياسية بحتة، وهناك الكاتب المحكوم عليه بوجهة نظر معينة فى الدين بوجه عام وفى الإسلام بوجه خاص. كما أن هناك المستشرق المتخصص الذى يدور فى فلك البحث الأكاديمى ويبنى آراءه مهما كانت على مصادر إسلامية معتمدة خصوصا بعد اكتشاف هذه المصادر وتحقيقها ونشرها، وترجمة بعضها إلى اللغات الأوروبية المختلفة، كذلك يوجد المبشِّر والمنصِّر الذى يتناول من الإسلام ما سهل عليه ورآه حسناً فى الدراسة المقارنة لإثبات تفوق الإنجيل على القرآن أو المسيحيين على المسلمين وهناك المبشرون الباحثون الذين جمعوا بين التبشير والعمل العلمى، وهؤلاء أقلية بين الغربيين.

وعلى الرغم من سيادة روح العنصرية والنزعة الاستعلائية فى الأدب الغربى بالنسبة للإسلام فإنه وجد، وبخاصة فى الفترة الأخيرة بعض العلماء الذين أبدوا تعاطفاً مع الإسلام، ولم يخفقوا فى تقديرهم للدور الذى أداه هذا الدين العظيم فى رقى البشرية، والدفع بالحضارة الإنسانية إلى الأمام.

ولقد أقبل عدد من الباحثين الغربيين فى العصر الحاضر على دراسة التصوف الإسلامى بخاصة ورأوا فيه فيضا من

الروحانية، فقد كتبت مارجريت أسمث بكفاءة عالية عن الإمام الغزالى، كما ترجم تمبل جيردنز Tempel Gairdenze «مشكاة الأنوار» للإمام الغزالى ترجمة طيبة والترجمة بعنوان The Niche for lights مع مقدمة صالحة عن المؤلف، والكتاب نشر فى عام ١٩٢٤م، وقد أشاد المؤلف بالخبرة الروحية لحجة الإسلام الإمام الغزالى، وتتبع اهتمام الباحثين الغربيين بالتصوف الإسلامى، الذين اهتموا به اهتماما كبيرا، وكتبوا فيه كتبا كثيرة، منها ماهو خاص بالتصوف الإسلامى فى الإسلام والتصوف فى اليهودية أو النصرانية على سبيل المثال.

ونشر بادويك padwick كتاباً بعنوان The Muslim Devotions (1960) وهو عبارة عن خزانة للأدعية الصوفية التى استغرق جمعها وتصنيفها وقتاً طويلاً من هذا المستشرق.

كما نشر الكاتب الغربى لويس بيفان جونز Lewis Bevan Jones كتاباً بعنوان «أهل المسجد» The People of the Mosque فى عام ١٩٣٢م، وفى هذا الكتاب حاول المؤلف أن يصور الإسلام بدقة وأمانة وتعاطف إلى حد كبير مع هذا الدين ومع المسلمين؛ وقد اعتمد جونز على المصادر الإسلامية فى كتابته، وقد حدد هذا الكاتب غرضه من وضع كتابه بهذه العبارة «The see Islam through Muslem eyes».

وهناك كتَّاب غربيون منصِّرون من البروتستانت بالذات، قد ولجوا إلى مناطق عميقة وحساسة داخل نطاق الحرم القرآنى والإسلامى بصفة خاصة، وبهذا الولوج قد جلبوا على أنفسهم

معاناة وعنتا شديدين، حيث استثاروا مشاعر المسلمين فظهرت من ثمة كتابات إسلامية كثيرة ضدهم بل لقد استنفر علماء المسلمين خصومهم الغربيين من أهل الدعاوى إلى المناظرات العامة؛ من هؤلاء المنصرين كارل جوتليب فندر (1865) Carl Gottleb pfender صاحب كتاب «ميزان الحق» The Balance of Truth.

وهو ألمانى لوثرى، أى من أتباع كنيسة مارتن لوثر، قصد هذا القسيس أن يثبت من خلال كتابه المشار إليه، ومن وجهة نظره صحة العقائد النصرانية، وسموها على الدين الإسلامى، وكان هدفه أيضا نشر الرسالة المسيحية بين مسلمى الهند.

وفى هذا الكتاب تناول الكاتب بعض المعتقدات الإسلامية بالهجوم والطعن على سبيل المثال فقد طعن فى القرآن وفى رسول الله ﷺ، وكان فندر ينظر إلى الآخرين وبالذات المسلمين بمنظار غربى، ومن أخطاء فندر بصورة عامة أنه استعمل موازينه الغربية فى الحكم على الإسلام وعلى القرآن وعلى النبى ﷺ.

جاء فندر «مستفزا» إذا جاز هذا التعبير، وكان بمثابة الدعوة المفتوحة إلى الجدل والحوار الساخن مع المسلمين، وبالتالى فقد كان متوقعاً أن يظهر كتاب إظهار الحق لمؤلفه الشيخ رحمة الله ابن خليل الهندى، فى الرد عليه ومعارضته بالحجج العقلية والنقلية، من القرآن ومن كتب اليهود والنصارى وأقوال علمائهم.

وإلى جانب هذا الكتاب الثرى يمكن أن يضاف كتاب الشيخ يوسف الدجوى وهو بعنوان: «الجواب المنيف فى الرد على مدعى التحريف فى الكتاب العزيز» نشر بالقاهرة.

ومن أصحاب الأقلام الحداد وليام كلير تسيدال (d. 1928) William St Clair Tisdall وكان يعمل جنباً إلى جنب مع فندر فى الجمعية التبشيرية للكنيسة والمعروفة بـ(CMS) والمعنية بنشر التعاليم النصرانية، ولقد انتهج تيسدال منهجاً أكثر حدة من رفيقه فندر فتصوَّر أنه بطعنه فى الإسلام يمكن أن يظهر ضعفه بطريقة تجعل منه هدفاً يمهد لخطة تبشيرية فى المستقبل، وقام تسيدال بتوسعة كتاب فندر وإعادة نشره لهذا الغرض. وقد اطلعنا على الكتاب فى نسخته الأصلية، وفى نسخته المزيدة فلم نر إلا دعاوى مكررة مع مزيد من العناد والمكابرة، والبعد عن الحقيقة، وإن ما جاء فى هذا الكتاب من أفكار وآراء لا يخرج كثيراً عن دعاوى ومزاعم كفار مكة التى حفظها لنا القرآن الكريم نفسه كما فى قوله تعالى: «**يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين**» (الأنعام ٢٥). «**وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا**» (الفرقان ٥). وقوله: «**ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين**» (النحل ١٠٣)، ثم دعاوى بطرس المحترم ورفاقه ثم دعاوى توماس الأكوينى، وإبراهام جيجر وغيرهم من الخصوم الأولين والخصوم اللاحقين ومن تبعهم بالطعن فى القرآن وفى الإسلام إلى يوم الدين.

نشر تيسدال كتابه مصادر الإسلام «The Sources of Islam» هكذا بالجمع ـ ليدلل فيه من وجهة نظره وعن طريق المقارنة التى توهمها ـ بين بعض الأحاديث والآيات القرآنية

ومصادر أخرى، أن الإسلام ديانة ملفقة، وأن القرآن كتاب منتحل، وأما المصادر التى اقترحها تيسدال بناء على مقارنته الظالمة فتضم مصادر عربية جاهلية، وأخرى من الكتاب المقدس وكتب نصرانية غير معتمدة وكتب هرطقة يهودية ونصرانية زعم أن الرسول ﷺ قد أخذ منها واعتمد عليها فى كتابة القرآن ، -Arib ian Pagan, biblical and Judaeo- Christiain heritical or apocrjphgl material، وقد وصف بعض علماء الغرب كتاب تيسدال هذا بأنه يمثل أحسن ما كتبه صاحبه وأكثرها أصالة[1]. وبعد هذه الخطى السريعة والواسعة فى الهجوم على القرآن يقول الكاتب، وكأنه يقرر نتيجة حتمية، ويقدم اكتشافا علميا خطيرا، «لو أننا نجحنا فى رد أى جزء من أجزاء القرآن إلى مصدر أرضى أو إلى أى أنظمة بشرية سابقة على عصر محمد ﷺ فإن الإسلام بالتالى سوف يخر ساقطا على الأرض.

تقول كيت زبيرى: «إن إسهامات تيسدال العلمية فى هذا المجال تحتوى على بعض النصوص المتوازية أو المتشابهة، والتى توجد واضحة فى القرآن أو الحديث، وكتب يهودية أو نصرانية وبالأخص بين النصوص الإسلامية، والنصوص التى ترجع إلى الأحبار ونصوص العهد الجديد التى لا تعترف بها الكنيسة كنصوص مقدسة على سبيل المثال، قصة سليمان عليه السلام وبلقيس ملكة سبأ، والتى جاءت فى كتاب استير فى نسخة التراجم الثانى»[2].

وينبغى أن نلفت النظر إلى أن بعض ما أورده تيسدال، ليدلل

---

(1) See bemmett Victorion Iges of Islam, in Kate Zebir Muslims, Christans Face to Face p. 96, 141.

(٢) المصدر السابق.

به على انتحال الرسول ﷺ له من الكتب السابقة إنما جاء من وحى تفكيره إلى حد كبير[١] ومن الجدير بالملاحظة على أى حال أن البحوث الحديثة فى هذا المجال أثبتت قدراً من الأصالة أكثر للإسلام، فى الشكل على الأقل إذا لم يكن فى المضمون.

هذا ولايزال كتابى فيندر وتيسدال يستعملان بواسطة بعض رجال الكنيسة الذين لايزالون يعتقدون فى فاعلية الجدل والمناظرة مع المسلمين. ومن هؤلاء الباحثين المنصِّر والكاتب منجانا الذى كان يعمل بالهند بين المسلمين ثم انتقل إلى انجلترا ليعمل فى كلية سلى أوك بجامعة برمنجهام والتى ظل بها حتى وفاته فى الثمانينات[٢].

فقد شكك منجانا A. Mingana فى صحة القرآن كنص، وكنقل وذلك فى بحث له بعنوان «The Transmission of the Qur'an" قمت بالرد عليه ببحث نشر بمجلة المركز الثقافى الإسلامى بلندن عام ١٩٩٣. وكتب سويتمان كتاباً ضخماً من عدة أقسام فى علم الكلام الإسلامى والنصرانى عنوانه «Islam and christian theology» جمع فيه أكثر الطعون الموجهة ضد الإسلام منذ ظهور الأدب البيزنطى إلى عصره، والمادة التى جمعها هذا الكاتب، وهو من الباحثين الذين عملوا فى الهند أيضاً صالحة ولا غنى عنها للباحثين فى علم الكلام المقارن، وفى تاريخ وطبيعة الجدل الدينى، المسيحى الإسلامى ولتطور الاتجاهات النقدية النصرانية ضد الإسلام إلا أننا لاحظنا على هذا الكتاب كثيرا من الأخطاء فى ترجمة النصوص الإسلامية،

---

(١) المصدر السابق صـ ٩٧.

(2) The Transmission of the Qur'an.

نصوص كتاب الفصل لابن حزم على سبيل المثال، ولاحظناه فى مواضع كثيرة أكثر تعاطفا مع وجهة النظر النصرانية وتحيزا لها، وقد عرضت لهذا فى رسالتى للدكتوراه «النصرانية من وجهة نظر الإسلام» المقدمة إلى جامعة اكتسر بالمملكة المتحدة عام ١٩٨٣، وكذلك الدكتورة نورشيف عبدالرحيم رفعت فى رسالتها عن اليهودية من وجهة نظر ابن حزم الأندلسى المقدمة إلى الجامعة نفسها، مما يغنينا عن إعادة ما قلناه هناك.

ولا يفوتنا ونحن نقدم هذا المختصر فى التأريخ للعملية البحثية حول الإسلام فى الغرب أن نشير إلى واحد من أبرز المنصرين الباحثين، والذى عمل فى البيئة العربية ومصر بالأخص وهذا الباحث هو زويمر القسيس العامل بالكنيسة الأمريكية المطورة The Hejormed charch of America ومن أبرز أعمال زويمر إنشاؤه مجلة العالم الإسلامى The Muslem World فى عام ١٩١١م[1].

يعتبر زويمر أكثر المنصِّرين المذكورين إنتاجا ونشاطا وأقربهم مساسا بالعقلية الإسلامية، وفى الوقت نفسه يعتبر كذلك من أكثر الباحثين تأثيراً على بنى دينه ومهنته، ولقد كان من مبادئه فى العمل بين المسلمين هذا المبدأ الذى لقى ترحيباً ورواجاً إلى اليوم، وهو يتمثل فى عدم الاعتماد، فى الحديث عن الإسلام، على النصوص الدينية فقط، بل أيضا على الاتصال والاحتكاك المباشرين بالمسلمين «The meed to understand Islam not Just through its textual sources but through Living with muslims.

(1) See Vander Werff, Christian Mission to Muslims p. 232 ff Kate Zebiri p. 197.

لم يغير زويمر لا موقعه ولا هدفه من حيث نشاطه التنصيرى وإنما غيَّر فقط خطته ووسائل هجومه مع تبنى طريقة دبلوماسية حركية جديدة فى تناول موضوعاته للتوصل إلى نفوس المستهدفين من المسلمين، ولتغذية هذه الفكرة وتعميقها توجه زويمر أكثر إلى موضوعات ووسائل أقرب إلى الجماهير المثقفة والعامية.

ولذلك تركزت بعض أعماله على المعتقدات الشعبية والأفكار الجماهيرية والتى يمارسها عامة المسلمين، واعتبرها إسلاما «شعبيا» وهنا نذكر على سبيل المثال من كتبه كتاب «الإسلام الشعبى» popular Islam (hondong the sheldon press 1939) & Animism on Islam (London SPCK 1920) وكتاب الاعتقاد فى الأرواح أو الأرواح وتأثيرها فى الإسلام.

وهو بهذا يكون قد فتح باباً جديداً فى المعالجة التنصيرية الموجهة نحو العالم الإسلامى، وربما خطرت ببال زويمر هذه الفكرة بسبب شيوع الجهل بين المسلمين آنذاك، ولتبنى جماهير عريضة منهم آراء وأفكارا بعيدة عن التعاليم الإسلامية الصحيحة، وقد شجعت زويمر هذه الظاهرة المرضية على اختراق صفوف المسلمين بناء على ما اعتقده بأن الإسلام كنصوص شىء، وكواقع شىء آخر، وأنه يمكن بالتالى وبعيدا عن التأزم الحاصل بين المنصِّرين وعلماء الإسلام أن يدخل من البوابة الشعبية على المسلمين وبخاصة ضعاف الإيمان من الجهلة ومحدودى الثقافة منهم، وانطلاقا من هذه القناعة فإن

زويمر فسر حب المسلمين لرسول الله ﷺ، الذى اعتبره تقديسا لمحمد ﷺ بأنه جاء كبديل لتقديس المسيح عليه السلام The venera- tion of Muhammad, which was felt to have evolved .among

Muslim as a substitute for christ، ولكن ينبغى أن ننبه على خطأ هذا الكاتب فى دعوى تقديس المسلمين للرسول ﷺ وإحلاله ﷺ محل المسيح عيسى ابن مريم إذ أنه يعنى به أن الناس عندما دخلوا فى الإسلام انتقلوا من تقديس عيسى إلى تقديس محمد، وهذا الزعم أو الوهم لو صح لعبد الناس محمدا كما يعبد بعض النصارى المسيح ولكن شيئا من هذا لم يحدث قط فلا الرسول طلب من أحد أن يعبده أو يقدسه أو حتى يطريه إطراء النصارى للمسيح، ولا المسلمون فعلوا شيئا من هذا قط، ولم يأمر الله تعالى بتقديس بشر، هذا ومن المفيد أن نعرف أن لفظ تقديس فى القرآن لم يستعمل فى القرآن إلا مرة واحدة، وقد جاء على لسان الملائكة هكذا «**ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك**» (البقرة ٣٠)، فقد جمع الملائكة بين التسبيح والتقديس باعتبارهما من أخص وظائفهم وواجباتهم تجاه الله سبحانه وتعالى.

وكما لاحظت كيت زيبيرى فإن كتابات فندر وتيسدال وزويمر قد عكست بلاشك أفكارا وأوهاما كانت سائدة فى القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين، والتى كان منها الزعم بأن المسلمين يعبدون إلهاً خاصا بهم ومختلفاً عن إله اليهود والنصارى، وأن محمدا لم يكن مخلصاً فى دعواه، وأنه كان انتهازيا فى طور دعوته فى المدينة، إذا لم يكن كذلك فى مكة

Muhammed was insincere and opportunistic in أيضـا
.the Medinan if not the Meccan Phase of his mission"[1]

ولكن ينبـغى أن نذكـر أن زويمـر كـان قـد رجـع فى كـتـاباته اللاحقة عن بعض ما قاله وأنه قد غير وجهة نظره بعض الشىء عندما قرر أن المسلمين يعبدون الإله الواحد نفسه، الذى يعبده اليهود والنصارى، ولكنه استعمل هذا التعديل أيضا لخدمة التنصير إذ أنه بينما يقرر أن المسلمين يعبدون الإله نفسه فإنه يقول: إن المسلمين لن يغيروا ولاءهم الصادق لهذا الإله فى حالة ما إذا تحولوا إلى النصرانية[٢].

فهو هنا يدعو المسلمين إلى اعتناق النصرانية والخروج عن الإسلام بحجة أنهم سوف يعبدون الإله نفسه الذى اعتادوا أن يعبدوه فى الإسلام، وهذه مغالطات مضاعفة وأخطاء مركبة إذ كيف يظل المسلمون يعبدون الإله الواحد فى ظل المسيحية، والمسيحية إنما تقوم على التثليث والحلول والتجسد، والفداء والكفارة وهى عقائد لا يقرها الإسلام البتة، ولم يمارسها المسلمون قط، ولتأكيد هذه النقطة نقول إن صموئيل زويمر إذ غير موقفه السابق بالنسبة لإله المسلمين يذكر أن المسلمين إنما يعبدون الإله نفسه الذى تجلى أو تجسد فى المسيح عيسى ابن مريم ـ عليهما السلام ـ وبالتالى فإن المسلم إذن لن يفقد ولاءه الصادق لله يعنى بدخوله فى النصرانية، فهو هنا كما أوضحناه يغير فى الطريقة وليس فى الهدف أو المقصد، إنه يدعو إلى التنصير صراحة ويزين للمسلم اعتناق النصرانية عن طريق تمهيد خاطئ ونتيجة خاطئة كذلك، فالله فى النصرانية يختلف فى

(1) See Zebiri p. 97.
(2) See The Allah of Islam The God Leveald in jesus Christ MW 36 - 1946 p. 309. Zabiri p. 97.

التصور والتدليل أيضا عنه فى الإسلام كما ذكرنا، فالقرآن يتحدث من أوله إلى آخره عن إله واحد أحد، فرد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، إله ليس كمثله شيء، لا أول له ولا آخر له ولا جسد ولا رسم، ولا مكان يحويه ولا زمان يؤثر فيه وليس فى الإسلام تجسد ولا حلول ولا استعلان، ولا تثليث ولا خطيئة ولا فداء ولا كفارة، تلك المعتقدات التى لم ترد على لسان المسيح عليه السلام ولا نقلها المسيح عن ربه الذى أرسله إلى يهود فلسطين.

ومن المهم أن نبرز هنا ما طرأ على اللغة التنصيرية من تغيير فى الألفاظ والعبارات فقط؛ فكلمات مثل غير مخلص Insincere التى كانت تطلق على محمد ﷺ فى أعمال أوائل المنصرين تغيرت عند منصر باحث مثل وات إلى Sincere أى مخلص كما سيمر بنا فى هذا الكتاب، ولكن كلمة مخلص التى استعملها وات وضعت بذكاء فى وسط من الكلمات لتفيد أن محمدا كان مخلصا عندما أخذ من اليهود، وانتحل من النصارى وأراد أن يؤسس دينا جديدا للعرب فالإخلاص إذن قد وظف فى كلام وات لغاية تتفق فى النهاية مع كلمة «غير مخلص» التى استعملها زويمر وأمثاله من قبل، بل ربما كانت أشد طعنا، ومما يلاحظ فى كتابات هؤلاء الكتاب الغربيين خروجهم بعض الشيء عن طابع الأدب الأوروبى فى العصر الوسيط، والذى صور الإسلام على أنه باطل كله، حيث اعترف الآخرون بأن فى الإسلام جوانب طيبة ينبغى ألا تغفل، ولكن من المهم أن نشير مرة أخرى إلى الكاتب المستنير توما الأكوينى الذى قرر أن ما جاء به محمد يحتوى على

شىء من الحق، لكنه فى الوقت نفسـه ملىء بالتزييف الذى دسَّه فيه محمد ووشاه بالحديث عن الله والصلاة والصيام أحيانا بقصد تغرير الناس وأحيانا أخرى دون قصد.

إن كتابات أعلام التنصير والبحث الكنسى تتجه دائما كوريث شرعى للأدب البيزنطى المعادى للإسلام، إلى تصوير الإسلام بغير حقيقته، ووضعه فى درجة دنيا بالمقارنة إلى النصرانية.

وإن ما نسمعه اليوم من نظرية صراع الحضارات، ووجوب غلبة الحضارة الغربية وسيادتها على كل ما عداها، وعن انحسار الإسلام بل والمطالبة بإبعاده عن الساحة إنما ترجع إلى الوراء لتعود إلى المصدر نفسه، أعنى الأدب البيزنطى، وإن اختلفت الوسائل والأهداف واختلف المخططون، فقد كان هؤلاء الأعلام الثلاثة يميلون إلى اعتبار الإسلام والنصرانية ندين متصارعين، وقد زعموا بناء على مقاييسهم الخاصة، وفى ظل التقدم الحضارى للغرب أن نجم الحضارة الإسلامية قد أفل، وأن الإسلام قد انحسر وانكسر بالفعل وأن الساحة العالمية لا تشهد اليوم إلا الحضارة الأوروبية والتى يجب على الجميع أن ينضوى تحت لوائها، ويسلم لها، ويعيش وفق معايير أهلها، وقد ألَّف زويمر بالفعل كتابا يعلن فيه سقوط الإسلام والكتاب بعنوان «The Disintegration of Islam» ومعنى هذا العنوان: تحلل الإسلام، ولا يعنى زويمر بالطبع انحسار الدور السياسى للإسلام وإنما يعنى أيضا اندثار الإسلام كعقيدة وشريعة ومعاملات وأخلاق وفكر وحضارة بشكل عام،

إن زويمر ورفيقيه إذن كانوا ينجمون بسقوط الإسلام أمام التقدم العلمى الهائل فى أوروبا ولم يخطر ببالهم قط أن الإسلام يقوى بالتحدى بل إنه دين جاء فيه الدعوة إلى التحدى، تحدى العقل ليفكر ويعمل، يقول تعالى: «**قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا**» (الإسراء ٨٨).

أقول إن هؤلاء المنصرين الباحثين لم يتوقعوا الصحوة الإسلامية بل اكتفوا بإظهار دعوى الصراع بين الإسلام والحضارة الأوروبية وبإقرار فوز الأخيرة المطلق على الإسلام فى نهاية الجولة، وانتشار تعاليم الإنجيل بلا منازع فى عموم البلدان الإسلامية كما توهموه، وبعبارة كيت زيبرى They tended to see Islam and Christianity in terms of Rival civilizations, and to detect in contemporary developments the decline of Islam ... a decline which would open the way not for Islamic reform but for the spreading of the gospel In Muslim countries.

وعلى الرغم من ذلك فإن بعض المنصرين وإن كانوا قلة قد اتسموا بالاعتدال والرزانة فى تقديراتهم للموقف وذلك فى ضوء نظرة أكثر نقدية وموضوعية للحضارة الغربية وبخاصة عندما اكتشفوا قدرة الإسلام الذاتية على التحمل والمواجهة عبر التاريخ، واستعادته لقوته كذلك عقب كل محنة أو صدام يمر به وكذلك قدرته الدائمة على التكيف مع المواقف المستجدة فى كل المجالات الدينية والاجتماعية والسياسية والعلمية[١].

The now obvious durability and resilience of Islam, in

(١) المصدر السابق.

its social and political as well as religious (in the narrower Western sense) dimensions.

وبناء عليه فقد نبذ كثير من المنصرين الطريقة الهجومية فى أعمالهم التنصيرية بين المسلمين most missionary works on Islam now abjured an aggressive confrontational approach وذلك لأنهم اكتشفوا أن هجومهم على الإسلام يزيد المسلمين تمسكاً بإسلامهم، بل ويستثير فى أذهانهم دفاعاً أقوى عن دينهم، ويزودهم بأدلة عقلية أكثر للبرهنة على صحة وصلاحية دينهم ، ما كان لهم أن يصلوا إليها لولا استثارتهم[١].

بل لقد أبدى بعض المنصرين أسفهم لغلوا أسلافهم فى مهاجمة الإسلام إلى درجة جعلت بعضهم ينادى بضرورة التسامى على التعصب والأنماط السلبية فى العمل التنصيرى، بل لقد أعلن بعضهم أن مثل أعمال فندر وأقرانه قد عفا عليها الزمن ولم تعد بعد صالحة فى العمل التنصيرى اليوم[٢].

ومع شدة إعلان الحاجة إلى هذا التغيير فى الاستراتيجية التنصيرية فإن الهجوم الظاهر على الإسلام والمسلمين لم يتوقف بعد وكما هو المتوقع، بل وربما ازداد بعدا وعمقا، وإن ظهر فى قشرة لامعة أحياناً، ففى عام ١٩٩٢م ظهر بالولايات المتحدة كتاب بعنوان The Islamic invation «الزحف الإسلامى» وهو كتاب قد حدد صاحبه هدفه من العنوان وهو هدف سياسى بالطبع والقطع، وهذا الكتاب ملىء ومضمخ بالسخرية والاستهزاء بالإسلام وبالنبى ﷺ، ولقد راح مؤلفه يبحث عن الأحاديث

---

(١) انظر براون Brown the was of the prophet p. 90 وكيث زيبرى ٩٨.

(2) See, a.g. Cooper (ed.) Ishmden, My brother p. 9 Musk, Touching the Soul of Islam p. 207 also, Chapman; Rethinking the Gospel for Muslims, p. 118 & Cross Crescent p. 213. Schlorff. Disciplship in Islamic p. 15, Vander. Werff Christion Mission to Muslims, pp. 41-2.

النبوية التى رأى فيها ما يقلل من شأن النبى ﷺ وبالذات فى عين الغربى المتسامى بنفسه وبتكنولوجيته على العالمين، إن مثل هذه الكتابات لا تساعد قط إلا على إذكاء روح العداوة والبغضاء فى وقت يحاول العالم فيه أن يتغلب عليها ويتخلص من قبضتها، ومما يفيد ذكره ولايجمل إغفاله تلك الحقيقة الباهرة وهى أن المسلمين لا يهاجمون قط المسيح عيسى عليه السلام أو مريم أو الحواريين البتة، ولا يتوجهون بالنقد أبدا لما صحت نسبته إليه عليه السلام فى الأناجيل، واتسق مع روح ومضمون الرسالة السماوية الأم التى جاء بها جميع الأنبياء من آدم وحتى محمد ﷺ.

إن مثل هذا الأسلوب التنقصى Pejorative ليس فيه علم أو فكر، وإنما عصبية وتشنجات لا توصل إلى شئ نافع ولا تدفع شيئا ضارا، سواء كانت هذه الكتابات بأقلام إسلامية أو نصرانية.

محمد النبى ورجل الدولة تأليف منتجمرى وات

W. MONTGOMERY WATT

(MUHAMMAD PROPHET AND STATESMAN)

مقدمة المؤلف: عرض لصورة محمد فى الأدب البيزنطى

استهل المستشرق منتجمرى وات، وهو قسيس اسكتلندى، كلامه عن محمد ﷺ باستعراض ما جاء عنه ﷺ فى الأدب البيزنطى. فى العصور الوسطى، يقول إنه فى هذه العصور حرف اسم محمد إلى «ماهوند» Mahound وكان النصارى فى هذا الوقت يعتبرون الاسم بهذا الشكل المحرف، اسما للشيطان، ومن وجهة نظره فإن هذا الفهم ليس غريبا كما يبدو للوهلة الأولى، فإنه ينبغى أن نتذكر أن الحركة الأولى للفتوحات الإسلامية بعد وفاة محمد، والتى وجهت نحو البلدان النصرانية قد انتزعت عدة بلدان مسيحية وبالذات فلسطين، مهد النصرانية، وابتداء من القرن الثامن الهجرى وما بعده ظل المسلمون يهاجمون الممالك النصرانية على حدودها الجنوبية، والجنوبية الشرقية، ويتساءل منتجمرى وات هل كان من الغريب إذن أن يحيك النصارى كل ما أمكن من عبارات الشر والتهجين ضد هذا العدو وقيادته الروحية، يعنى رسول الله ﷺ والأمة الإسلامية؟

يتضح هذا المعنى عندما ننظر فيما قيل عن قيصر وهتلر، هذا فضلا عما قيل فى نابليون إذا قارنا هذا بما قاله النصارى عن محمد والمسلمين فإنه لن يبدو غريبا ولا عجيبا، أعنى أن يعتقد أوربيو القرون الوسطى أن أعداءهم (المسلمين) كانوا يستمدون

قوتهم من مصدر جميع الشرور.

لم تتحسن هذه الصورة أو هذا الموقف النصرانى حتى عندما رأى أهالى أوروبا الغربية، الذين كانوا يعيشون حياة بسيطة وفقيرة آنذاك، حكام المسلمين فى الأندلس يعيشون فى بذخ وترف، إن علاقة المسلمين والأوروبيين فى العصور الوسطى كانت أفضل قليلا من علاقة الأوروبيين بدول المعسكر الشرقى فى فترة الحرب الباردة وإن تلك الدعاية السيئة التى روج لها الغربيون ضد الإسلام والمسلمين بلغت أسوأ حالاتها تزييفا مما حطم القضية المسيحية.

لقد كان المحاربون الأوروبيون يشجعون على اعتقاد أن المسلمين وحشيون وهمج رعاع، وحيوانات مفترسة Fighing men were uncouroged to think that the Muslims were cruel bestial savages (P.2.f).

بعد ذلك يقول وات: «ابتداء من القرن الثانى عشر وما بعده عمل الباحثون على تصحيح الأخطاء، ولكنهم لم يستطيعوا ذلك إذ لايزال هناك بعض الشعور بالمرارة يعانيه الأوروبيون إلى اليوم وذلك بسبب ما حدث فى العصور الوسطى بينهم وبين المسلمين.

حتى الدراسات الاستشراقية لم تستطع أن تتغلب عليها إلى الآن، ومن الواضح أن وات يحاول هنا أن يجعل من الاستشراق أداة لتحسين معرفة الغرب بالإسلام وتحسين موقفهم منه، ولكن هذا القول على إطلاقه مبالغ فيه إلى حد بعيد، فإن الاستشراق وإن

كان أقل حدة من غيره من الكتابات الغربية عن الإسلام، لم يخرج عن كونه أداة علمية، وآلية فكرية لخدمة الأغراض الأوروبية السياسية والدينية.

بعد أن عرض المستشرق وات باختصار وجهتى النظر الإسلامية والغربية يحدد منهجه ومقصده من وضع هذا الكتاب فيقول:

«كيف إذن يمكن أن نحصل على صورة صحيحة لشخصية محمد ﷺ هل هو رسول من الله» أم هو كما وصفه أحد الكتاب القدامى شخصا منغمسا فى الشهوات ماذا كان محمد؟ هذا سؤال ليس من السهل أن يجاب عليه!

إن الإجابة على هذا السؤال لا تشتمل فقط على إصدار حكم على حقائق، بل إنها تتضمن كذلك أحكاما لاهوتية وخلقية، يعنى أنه إذا قلنا إن محمدا نبى فإنه لابد أن نقبل أقواله فى المسيح وفى كتب اليهود والنصارى، وهذا بالطبع سوف يترتب عليه معارضات كثيرة ضد المسيحية بل وضد شخص المسيح كما تتصوره الكنيسة، إن الكتاب كما يعلن وات، سوف يلتزم بعرض الحقائق العلمية التى تقوم على أساسها تلك الحقائق الكبرى والنهائية إذا أمكن أن تكون هذه الحقائق العلمية مقبولة بصفة عامة (P.3)، فالكاتب من البداية يجزم بأنه ليس من السهل أن يحكم على شخص محمد، أو أن يحدد موقفه منه ﷺ هل هو رسول الله، كما يعتقد المسلمون، «أم هو رسول الهوى والشهوات كما صورته أقلام المسيحيين فى العصور الوسطى؟ يلاحظ

القارئ أن وات يجعل وجهة النظر الغربية المغرضة فى مقابل اعتقاد المسلمين الجازم فى نبوة النبى ﷺ وفى صحة القرآن والسنة النبوية المطهرة، هذا ولم يكتف المستشرق وات بالحقائق الدينية والتاريخية فى الحكم على محمد ﷺ ولا بالقرآن ولا بالسنة ولا بالأدلة العملية المتمثلة فى اعتناق الملايين من البشر لنبوة محمد ﷺ بل جعلها متساوية مع افتراءات الكذابين والمغرضين من الملتاثين عقلياً من نصارى القرون الوسطى وهذا بالطبع ليس من سنن المنهج العلمى.

ويقطع وات بأن المعلومات التاريخية القليلة عن حياة محمد ﷺ تختلط بالكثير من الأساطير إلى درجة يصعب معها الفصل بينهما (P.3 FF).

إن وات يشكك هنا فى شخصية النبى ﷺ ويحاول أن يجعله شخصية مغلفة بالكثير من الأساطير كما يزعم وفى الحقيقة أن المسلمين أنفسهم قد غربلوا ما قيل عنه ﷺ ونخلوه نخلا محكما وميزوا الصحيح منه واعتمدوه، ودلوا على الضعيف منه ورفضوه، إن حياة محمد ليس فيها جهالة ولا غموض بل هى واضحة كل الوضوح، وإن دور محمد فى بناء الأمة وبناء التاريخ الإنسانى فى حياته وبعد موته، وإلى اليوم، وإلى أن تقوم الساعة لايجعله قط يبدو كشخصية أسطورية كما يحاول وات أن يؤسسه فى ذهن القارئ؛ ومن الأخطاء التى لا يمكن أن تبرر لمنتجمرى وات زعمه بأن محمدا قد تحير فى معرفة من يكون هذا الشخص الذى خاطبه بالوحى فى غار حراء، إذ أنه فكر أولا أنه كان «الله

نفسه الذى خاطبه بالوحى، ولكنه بعد ذلك عاد فقال بل إنه كان روحا من عند الله»، مجرد روح هى التى كانت توافيه بالوحى، ومرة أخرى زعم محمد أنه لم يكن هذا ولا ذاك بل كان هو «الملاك جبريل» هذا الاختلاف فى تحديد طبيعة الشخص الذى كان يأتى محمدا بالوحى، وهذا التغيير فى مواقف محمد ﷺ منه ربما صدر عنه خصيصا، بعد أن عرف ﷺ من خلال تعاليم اليهود أن الله لا يرى ولايمكن أن يرى.

نظرة وات إلى القرآت الكريم

ويزعم وات فى هذا الكتاب ما زعمه هو وريتشارد بل فى مقدمتهما على القرآن الكريم بأن القرآن ناقص، وأنه لم يكتب فى حياة صاحبه كاملا، بل وبعد وفاته بنحو عشرين عاما (P.16) ، ويقول أيضا إن المسلمين يعتقدون أن القرآن الكريم هو كلام الله، وأن محمدا بالطبع قد بين أنه كذلك، ولو أن محمدا اعتقد أن القرآن كان من بنات أفكاره لاختلف الأمر تماما، ولتغير بالتالى منهج محمد بصورة كاملة، إن محمدا كان يفرق بين كلامه هو والكلام الذى يأتيه أو يلقى عليه من الخارج بواسطة الملاك جبريل عليه السلام».

وبينما يقرر وات على أى حال أن محمدا كان مخلصا فى اعتقاده فإن هذا لا يعنى من وجهة نظر وات أن القرآن هو كلام الله، لأن قولنا أنه كان مخلصا لا يتضمن أنه كان مصيبا فى اعتقاده، إذ قد يكون الإنسان مخلصا وهو فى نفس الوقت مخطىء أما بالنسبة للإنسان الغربى المعاصر فإنه لا يجد صعوبة فى البرهنة على أن محمداً كان مخطئاً، فالكلام الذى

كان يأتيه من الخارج «إنما كان يأتيه من مخزونات «اللاوعى» كما كان يحدث لأنبياء العهد القديم الذين كانت لهم الخبرة نفسها، والذين كانوا يقولون «وهكذا قال الرب». وهنا يظهر الخيط الرفيع بين عنوان الكتاب وفكر كاتبه، نعنى قوله أن محمدا كان كأنبياء أو متنبئة العهد القديم كما أوضحناه سلفا. ويتضح رأى منتجمرى وات فى القرآن أكثر وأكثر، من قوله: «إنه من الممكن أخذ القرآن كبناء أو كجسم مترابط من الأفكار، وأنه ينبغى علينا أن ندرس مغزى هذه الأفكار فى قرينتها الاجتماعية والتاريخية». يتضح من هذا أن القرآن فى مفهوم وات عبارة عن بناء أو كتلة من الأفكار التى يمكن أن تدرس زمنيا، وفى قرينة الظروف والأحوال الاجتماعية والتاريخية للبيئة التى نزل فيها القرآن وتعامل معها النبى ﷺ وتأثر بها، وذلك كأى أفكار أخرى لأى مفكر أو كاتب بشرى (P.16)، فالقرآن إذن وبناء على هذا الزعم يعتبر ابن وقته وابن بيئته فهو بالتالى ليس كتابا إلهيا أنزله الله من وراء حجاب الزمان والمكان؛ وهذا خطأ فادح ومصادمة لعقيدة ملايين المسلمين الذين يعتقدون فى إلهية القرآن، كل القرآن ولا يرون قطا أنه مجموعة من الأفكار، بل إنه مجموعة من التعاليم والمبادئ الإلهية الصرفة.

وأكثر خطأ من جهة الكاتب زعمه بأن اعتقاد محمد بأن ما جاءه كان وحيا لم يمنعه من إعادة ترتيب مادته وتبديلها وتغييرها بالزيادة والنقصان، فهو يعنى بوضوح أن محمدا كان يعتقد من عند نفسه أن القرآن هو كلام الله، وليس كلامه هو، وأنه على الرغم من اعتقاده هذا قد خالف الوحى؛ إذ أنه رتبه بطريقته

الخاصة، وأنه غير فيه وبدل، ومثل هذه الأفكار هى الجامعة التى تضم جميع المستشرقين والمنصرين، وإن كان لكل واحد منهم أسلوبه وطريقته فى التعبير عنها، يؤيد منتجمرى وات دعواه بأن محمدا قد بدل وغير فى القرآن بالإشارة إلى القرآن نفسه، إذ أن الله جعل محمدا ينسى بعض الآيات، وبالقراءة المتأنية للقرآن يظهر لنا أن هناك بعض العبارات والكلمات قد أضيفت إليه بالفعل، وهذه الإضافات ليست بالطبع أو القطع من تأليف محمد (P.17). يقصد وات إن يقول أن القرآن قد دخلته عبارات ليست منه وبالتالى فقد دخله التحريف، وينبغى أن نضع فى أذهاننا أن وات للأسف يطبق على القرآن المعايير النقدية نفسها، والتى استخدمت فى فحص الكتاب المقدس؛ وهو يخضع القرآن خطأ للظروف والأحداث نفسها التى تعرضت لها كتب العهدين القديم والجديد.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن المستشرق الأسكتلندى يشير إلى أن عملية النسخ التى ذكرت فى القرآن جاعلا منها أداة لتحريف القرآن، مستندا على ذلك بما عرف بالآيات الشيطانية، التى زعم البعض أنها من محتويات سورة النجم، لكنها نسخت منها فيما بعد (تكلم المؤلف عن هذه الآيات مرة أخرى فى الباب الثانى من كتابه)، وهذه الحكاية موضوعة ولا أساس لها من الصحة بالمرة، وهى من وضع الزنادقة، والشيطان ليس له آيات، وليس له سلطان على الرسول ﷺ كما أنه لا يمكن أن يضع فى كلام الله شيئا أو يرفع منه شيئا. وقد بينا فى

كتابنا القرآن الكريم من المنظور الاستشراقى أن العرب لم تعرف هذه الكلمـــات أعنى الغـــرانيق التى تشكل صلب الحكاية الأسطورية، وقـد بينا أيضـــا فى هذا الكتـاب أن هذه الرواية الموضوعة لا تستقيم من حيث التوقيت ولا من حيث المناسبة ولا من حيث الاتساق مع طبيعة الخصوم، ونوع الخصومة بين رسول الله ﷺ وكفار قريش.

ويطرح وات تفسيرا آخر لطبيعة ومصدر القرآن فيقول: «وحتى لو لم يكن القرآن من مولدات عقل محمد أو من أفكاره فإنه كان بلاشك صدى لما كان يستولى على عقله ويسيطر على فكره» (P.19).

وبالتالى فإنه ليس من المتناقض أن نتكلم عن القرآن باعتباره من أفكار محمد، وفى الوقت نفسه نعتقد أنه كان مخلصا فى دعواه أن القرآن كان يصدر من خارج نفسه، وسبب آخر يذكره وات فى هذا السياق، وهو أن القرآن لم يأت بلغة العرب فحسب وإنما جاء أيضا على منوال أفكارهم، لأنه جاء ليخاطب عرب القرن السابع الميلادى، ولذلك فإننا لو أردنا أن نعرف البنية العقلية لمحمد وللمسلمين وجب أن ندرس القرآن.

فالكاتب يعيد هنا ما قاله هناك بشأن بشرية القرآن وصلته الحميمة بواقع الرسول والمسلمين وعرب الجاهلية، ولو أن البروفيسور وات والمستشرقين بصفة عامة قالوا إن القرآن يحتوى على كثير من صفات وأحوال محمد ﷺ وصفات وأحوال المجتمع الذى بعث فيه، على معنى أن القرآن قد تكلم عنها وتوجه

إليها بالدعوة لا على معنى أن القرآن لم يكن إلا صدى لأفكار محمد وتأثير البيئة عليه لكان أصوب وأحرى بالقبول منهم.

وهنا لابد أن نشير إلى أن الكاتب استعمل كلمة Recite كترجمة للفعل «اقرأ» والأدق هو استعمال هذا الفعل الأخير، لأن الفعل Recite يعنى ترديد شىء معروف سلفا، وهذا ليس هو المراد من الآية الكريمة، بدليل تردد النبى ﷺ وإعادته السؤال على جبريل «ما أنا بقارئ». وكذلك استعماله لكلمة Prophetic vocation فى التعبير عن الوحى، أو نبوة سيدنا محمد ﷺ، وهذه الكلمة تعنى مهنة، منصب، نداء صادر من أعماق الشخص، وهذا غير المراد.

ويضيف وات قائلا: «ومما ينبغى أن يذكر أن معرفة العرب بكتب اليهود والنصارى لم تكن بطريقة مباشرة، وهذا الكلام يوحى بأنهم كانوا يعرفون هذه الكتب، على أى حال، وبالتالى فإمكان تأثر محمد بها قائم وغير مستبعد. ثم يقول وات بأن اللقاء الذى تم بين محمد ﷺ وورقة بن نوفل الذى كان عنده علم ضئيل بأسفار الكتابيين، أسفر عن معرفة محمد بأن ما جاءه يشبه تماما ما جاء به موسى عليه السلام، وهذا الخبر يمكن أن يكون صحيحا، وأن تشجيع ورقة لمحمد كان جد مطلوب منطقيا فى ظل هذه الظروف، وذلك لتأييد محمد فى مهمته وأداء رسالته التى أعلن عنها. ونلاحظ هنا أن العبارات والتراكيب التى استعملها وات توحى بأن محمدا كان فى حاجة إلى هذا التشجيع البشرى الذى ثبته على دعواه، وأقنعه بأن ما كان يأتيه من داخله أو من

منطقة اللاوعى عنده إنما كان وحيا إلهيا، أبعد منتجمرى وات كثيرا فى محاولته تأكيد بشرية القرآن وتبعيته لأسفار الكتابيين وتعاليمهم، وبتأثره بالبيئة العربية الجاهلية المحيطة به، إذ يذكر: أن القرآن قد اهتم أولاً بالحديث عن الآيات الكونية، الإنسان والسماء والأرض، وعن نعم الله على عباده، وقوته سبحانه وتعالى تلك المعانى التى تميزت بها الآيات التى نزلت أولا على محمد ﷺ، وإن هذه التصورات أو المفاهيم المسبقة قد اعتمدت فيما بعد على تطورات العقيدة الإسلامية وذلك عندما تحتم الإعلان عن هذه الحقيقة وتأكيدها، وهى أن الله هو الحق المطلق والأسمى وأن الأصنام ليست بشىء، وبعبارة أخرى، والكلام للمستشرق، إن رسالة محمد الأصلية لم تكن نقدا للوثنية أو طعنا فيها بل إنها فيما يبدو كانت موجهة لفريق مخصوص من الناس الذين كان عندهم بالفعل فكرة غير واضحة عن الله تعالى، وقد كان هدف محمد ﷺ أن يسمو بفكرتهم تلك عن طريق لفت أنظارهم لحوادث أو وقائع معينة تجرى فى الكون، وفى عمل الطبيعة الذى من خلاله تظهر قوة الله (تبارك وتعالى). ثم يقول الكاتب نفسه: «إن مفهوم التوحيد الغامض قد قبله فى البداية عقلاء أهل مكة فى هذا الوقت، كما أنه من المحتمل أن محمدا كان قد قبله هو الآخر أيضا، فلقد سمح محمد لقريش أن يعتبروا «رب البيت» يعنى الكعبة، كإله مساو للرب أو الله عزوجل، ويستشهد وات على ذلك بقوله تعالى: **«فليعبدوا رب هذا البيت* الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف»** (قريش: ٣ – ٤).

والعجيب أن يفهم وات من قوله تعالى «**فليعبدوا رب هذا البيت**» أن محمدا قد دعا العرب لعبادة رب آخر غير الله، هو رب البيت، بينما المعروف حتى لعرب الجاهلية، أن رب البيت هو الله تعالى لا رب سواه. ومما أورده ابن هشام من كلام عبدالمطلب جد الرسول ﷺ عند مداهمة أصحاب الفيل للبيت العتيق قوله: «اللهم إن العبد يمنع رحله فامنع رحالك»، فهو هنا يناجى الله تعالى بأن يحمى بيته، ومما قاله عبدالمطلب أيضا فى هذا المعنى: «**أما الإبل فهى لى وأما البيت فله رب يحميه**»[١].

والرب هو الله تعالى رب البيت ورب الإنسان والأكوان، ورب كل شىء، وقد أتبعت هذه السورة بسورة الفيل والتى هى مفتتحة بقوله تعالى: «**ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ...**» فرب محمد هو رب كل شىء ومليكه، وأما ذكر البيت فى سورة قريش فمتمكن لتقدم حمايته فى السورة التى قبلها، وقد اعتبر بعض المفسرين السورتين، سورة الفيل وسورة قريش، سورة واحدة وهما كذلك متصلتان فى مصحف أبىّ بن كعب، وقد كان بعض الأئمة يقرأ بهما متصلتين[٢].

ويجدر بنا أن ننبه على أن الله تعالى قد أضاف البيت إلى نفسه تشريفا للبيت، ولهذا التعبير أعنى «**رب هذا البيت**» نظائر فى القرآن الكريم على سبيل المثال «**وأنه هو رب الشعرى**» (النجم ٤٩)، «**ربنا رب السموات والأرض لن ندعوا من دونه إلها لقد قلنا إذا شططا**» (الكهف ١٤)، «**فسبحان الله رب العرش عما يصفون**» (الأنبياء ٢٢)، «**قال فرعون وما رب العالمين * قال رب**

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ صـ ٤٤ - ٤٦.

(٢) ابن عطية، المحرَّر الوجيز ١٥/٥٧٣، ٥٧٤.

السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين * قال لمن حوله ألا تستمعون * قال ربكم ورب آبائكم الأولين * قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون * قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون» (الشعراء ٢٣ - ٢٨)، **«اقرأ باسم ربك الذى خلق»** (العلق ١)، **«فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون»** (الذاريات ٢٣). فرب البيت ورب الشعرى، ورب الإنسان، ورب الزمان والمكان، ورب العرش ورب المشرق والمغرب هو الله رب العالمين ولاشك.

يقول المستشرق وات: «إن المماثلة بين تعبيرى رب الكعبة ولفظ الجلالة «الله» كانت قد قبلت من محمد على أنها صحيحة، ومن ثم فلم يشعر المكيون بالحاجة إلى تبرير خاص لهذا الاعتقاد، وبعبارة أخرى، والكلام لوات، فإن المكيين تحت التأثير اليهودى المسيحى كانوا بالضرورة يتقدمون نحو عقيدة التوحيد؛ ولننبه على عجل ونحن نستعرض آراء هذا المستشرق أنه حكم هنا بوجود تأثير يهودى نصرانى على أهل مكة، وليس على محمد وحده، وزعم أن هذا التأثير هو الذى دفع بعرب الجاهلية إلى عقيدة التوحيد، أى أنه لم يكن لمحمد تأثير فى نشر هذه العقيدة التى هى عصب الإسلام وروحه، ولسنا ندرى من أين جاء وات بهذه الدعوى العريضة، دعوى تأثر عرب الجاهلية بالعقيدة اليهودية النصرانية؟

وإذا كان الأمر كما توهمه وات فلماذا لم يتنصر كفار مكة أو يتهودوا؟ ولماذا وقفوا يدافعون عن وثنيتهم بكل سبيل ووسيلة،

إنه لا يوجد دليل واحد يثبت تأثر قريش باليهودية أو النصرانية، ومن المعلوم ضرورة أن جماعة الحنفاء الذين كانوا يتمسكون بعقيدة التوحيد الخالصة إنما ورثوا هذه العقيدة عن نبى الله إبراهيم عليه السلام جيلا عن جيل، وبطريقة مباشرة، ولم يرد عن واحد منهم أنه أرجع هذه العقيدة إلى اليهود أو النصارى، هذه واحدة. وأما الأخرى: فإنه بينما تنص كتب الديانة اليهودية على التوحيد الخالص، وبغض النظر عما يشوب هذه العقيدة من تجسيد وتحديد فى بعض المواضع، فإن المسيحية تقول على العكس من ذلك بالتثليث، أو بعبارة أخرى تدعو إلى التوحيد من طريق التثليث، ودون دخول فى التفاصيل الدقيقة فأين هى آثار عقيدة التثليث عند أهل مكة؟ أو آثار اليهودية عندهم؟ وهم الذين ظلوا يدافعون عن وثنيتهم باستماتة، وقد كانت ديانتهم هى قوميتهم وجامعتهم، والتى ظلوا يدافعون عنها حتى دخل الرسول والمسلمون مكة وطهروا الكعبة من الأصنام.

نقول ونحن نشعر بحرج لتسفيه آراء رجل أمضى عمره فى الاستشراق، أن منتجمرى وات يزعم أن الإقبال على اعتناق عقيدة التوحيد ربما وطأ له الطريق وجعله حريا بالقبول كون الكلمة التى يعبر بها عن الذات الإلهية، وهى فى اللغة الإنجليزية «God»، وفى اللغة العربية تعنى ببساطة الله أو الإله «The God»،وهى مماثلة للكلمة الإغريقية Ho theos التى ربما تعنى «The God» والتى تتضمن هى بدورها معنى كلمة ديليفك أبوللو «Delphice Apollo» ولكن الكلمة فى العهد الجديد هى

بالتحديد «الله» أو الإله «God» وهى كذلك بالنسبة للغة العربية إذ أن تحويل كلمة God، إلى the god of the kabah ثم إلى الله الخالق لكل شيء، كان أمرا سهلا وميسورا لمحمد، ويذكر وات مرة أخرى أن عقيدة التوحيد المكية كانت غامضة Vague، وأن محمدا إنما أراد أن يرضى الوثنيين بمكة عن طريق الثناء على آلهتهم لكن الشيطان قد أجرى على لسانه عبارة (تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى)، وقد بينا من قبل أن هذه العبارة من وضع الزنادقة، ولم يكن لمحمد ولا لصحبه علم بها البتة ثم إن عبارة الغرانيق العلا لم ترد فى سيرة ابن اسحاق وهو كاتب سيرة الزمان، وهى قلقة فى شكلها ومضمونها وفى توقيت وضعها وفى السبب الذى قيلت لأجله.

العبادات الإسلامية

لم تسلم العبادات الإسلامية من سخط ناقدنا فهى بالنسبة له غامضة وغير محددة، ولا تعدو أن تكون عملا سطحيا وحركات ظاهرية لا تصل إلى الوجدان الإنسانى، إن عبادة الشرق أوسطيين، بتعبيره، لا تمثل ببساطة، خبرة داخلية وعميقة للإنسان an inner experience إنها فقط ربما تحتوى على هذا العنصر يعنى الخبرة الذاتية بدرجة ما، ولكنها فى حقيقتها على أى حال لاتعدو أن تكون تأكيدا عمليا أو علنيا عن الموقف الذى حدده الإنسان لنفسه فى الحياة، وإذا أردنا أن نقيس العبادة فى الإسلام بشيء ظاهر فى وقتنا الحاضر قلنا إنها أشبه بلون يتخذه أعضاء حزب ما كشعار يميزون به أنفسهم فى أيام

الانتخابات، وكما أنه يعد من الخيانة أن يتخذ صاحب الشعار الأحمر شعارا أزرق مثلا، فإن المسلم يعد خائنا كذلك إذا صلى بغير صلاته، وهذه هى النتيجة التى استطعنا أن ننتزعها من كلام وات فى وصف طبيعة الصلاة الشرق أوسطية كما يسميها «when we are dealing with Middle East we Must re-member that the public religious observances are acts of this kind (P. 30). يعنى أنها ليست صلاة أو عبادة وجدانية، وإنما هى شعار ظاهرى يدل على الانتماء لجماعة ما، أو لعقيدة ما، ولا يتصل أبدا بأعماق الإنسان، إن مونتجمرى وات محكوم فى نظرته تلك بالمفهوم الغربى للعبادة، والذى يمكن للمسلم أن يرى فيه أيضا ما رآه وات بالنسبة للعبادات الإسلامية بل وربما رأى المسلم فى العبادات النصراينة أكثر من ذلك مما يعده وات شعارا ظاهريا، وفى هذه القرينة نلفت الأنظار إلى أن المنصبرين البروتستانت الأمريكان لم تعجبهم العبادات النصراينة الشرقية بالمرة، فقد كانوا يحتقرون عبادات النصارى العرب ويصورونها بأبشع الصور، بل لقد صرح بعضهم بأن الأتراك كانوا محقين فى احتقارهم لهم وفى الشعور عليهم بالتفوق لهذا السبب، هذا ولم يتوقف هذا الهجوم عند حد العبادات الشرقية بل لقد تعداه إلى الهجوم على العبادات الكاثوليكية؛ فقد هاجم المنصرون الأمريكان الكاثوليكية وكفروا أتباعها ووصفوا ما لديهم من تراث بأنه خرافة ومجموعة من البدع[1].

(1) Fuad Shaban Islam and Arabs Early Amirican thought p.84.

إن العبادة فى الإسلام، وعلى عكس ما زعمه وات وأمثاله، هى أعمال وجدانية روحية تربط الإنسان بالله ظاهرا وباطنا، ولا تفصله فى الوقت نفسه عن مجتمعه، أو تعزله عن العالم الذى يعيش فيه، والصلاة بما فيها من وقوف وركوع وسجود وقراءة فى الأوقات المخصوصة التى حددتها الشريعة إنما تجعل من الإنسان كائنا ربانيا ومدنيا راقيا فى الوقت نفسه، يعرف حق خالقه وحق نفسه وحق مجتمعه عليه، فهو فى صلة وتواصل وانسجام دائم مع الله ومع النفس والطبيعة والمجتمع، كل هذا يحدث فى إطار منظومة إلهية منسجمة ومنهج ربانى متكامل. فالصلاة إذن ليست مجرد وقوف وركوع وسجود وقيام وجلوس، وقرآن يتلى، وعبارات تردد كما حاول وات أن يصوره، إنما هى طهارة باطنة وظاهرة وهى خشوع وانسجام تام يؤدى من خلال هذه الحركات البدنية التى لا تخلو هى الأخرى من فائدة عملية تعود على المتعبدين، بل هى فى نفسها رموز على أن العبادة فى الإسلام ترتبط بالحركة والنشاط والقيام والقعود والعمل والرجاء وليست هى تأملات وتهويمات بعيدة عن واقع الحياة، وليست هى كذلك بالأناشيد والأهازيج والتراتيل التى تؤدى فى مكان معلوم ومناسبات مخصوصة ثم ينصرف الناس دون أن يحملوا منها شيئا فى قلوبهم أو يظهر لها أثر فى سلوكهم، فالأرض بالنسبة للمسلم كلها مسجد وتربتها طهور، وصلاته شاملة لأوقاته.

ومن المفيد هنا أن نذكر أن كثيرا من الغربيين، على خلاف ما قاله وات، قد أبدوا إعجابهم وتأثرهم الشديد بالعبادات فى

الإسلام، فى مظهرها وجوهرها على سبيل المثال فبينما ينتقص
وات من شكل العبادات الإسلامية ومضمونها، فإن كثيراً من
الغربيين يثنى عليها بل ولايترددون فى إبداء إعجابهم الشديد
بها، ليس من حيث الشكل والمضمون فحسب وإنما من حيث
الأثر العظيم الذى تحدثه فى نفس العابد المسلم أيضا، ولقد دخل
الإسلام أعداد غفيرة من خاصة الغربيين عن طريق تأثرهم بهذه
العبادات وممن أعجبوا بالعبادة الإسلامية نذكر بارشال Par-
shall فإنه لم يستطع أن يخفى تقديره وإعجابه بالثقافة
والعبادات الإسلامية فهو يقول: «إنه من المهم للنصارى ألا يكتفوا
بمجرد ملاحظة الشعائر الإسلامية، بل ينبغى أن يمعنوا
أنظارهم فيها بعمق ليتعرفوا على أسرارها ودقائقها، وذلك حتى
يتوصلوا إلى المعانى الحقيقية التى تكمن وراء الممارسات
الظاهرة لكل شعيرة منها». ويرى هؤلاء الغربيون المنصفون من
ثم «عمق وعى المسلمين بالله كسمة رئيسية للإسلام، وقد أبدى
الكاتب نفسه بالإضافة إلى ذلك إعجابه وتأثره الشديدين بما
أسماه «الجمال التوقيرى الذى تعكسه صلاة الجماعة عند
المسلمين».

prope deeper and enter "Parball wges the christions not merely to obsorve Muslim rituals but also to as the centeral feabure of Godawareness", and sees" into the meaning of each external observance (الخشية من الله وتمام الخضوع له) Islam. He comments on the sanse of oue and humility

wich is visible in the performance of the five daily prayers. and mentions the reverntial beauty and sub-limity illustrated by a great mass of people bowing with faces to the ground in prayerful adaration of their creator.

هذا مثل واحد يغنينا عن أمثلة كثيرة قد يُخْرِجُ إيرادها وتتبعها هذا البحث عن حده الموضوع له[1].

إن العبادات الإسلامية منزلة على قدر حاجة الإنسان وصلاحه وفلاحه فى الدنيا والآخرة، وهى تهدف إلى تصفية ظاهره وباطنه فالحركات والأفعال الظاهرة للعبادات إنما هى بمثابة القشور للثمار، والصدف للآلئ، والثمرة دون قشرة تحوطها لا نفع فيها، وكذلك الصدفة لا قيمة لها بدون اللؤلؤة. لذلك يركز الإسلام على النية فى العبادات ويجعل الإحسان هو أعلى غايات العبادة. والإحسان **«هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**. الحديث. بتمامه رواه عمر ﵁ عن رسول الله ﷺ وأخرجه مسلم فى الصحيح. والعبادات الإسلامية بلا استثناء تتصل بقلب الإنسان ووجدانه وتباشر كل كيانه وأحاسيسه، وتصل به إذا ما بلغت رتبة الإحسان إلى مقام التقوى والتمكين.

وليس يقل عن هذا أهمية أن نذكر أن العبادة فى الإسلام هى عبادة جميع الأنبياء والمرسلين بما فيهم عيسى ابن مريم ﵇ يقول تعالى: **«وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه**

لا إله إلا أنا فاعبدون» (الأنبياء ٢٥)، **«وقال المسيح يابنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم»** (المائدة ٧٢)، **«ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم»** (المائدة ١١٧)، **«ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله»** (النحل ٣٦).

إن الهجوم على القرآن على أى حال يعد مجالا من مجالات الأدب التنصيرى والاستشراقى بشكل عام، ولكن ينبغى أن نعرف أن من المنصرين باحثين مهتمين بدراسة الإسلام كالمستشرقين الذين جمعوا بين المهنتين؛ ومنصرين آخرين ليسوا متخصصين فى الإسلام وبالتالى فهم يعتمدون فى كتاباتهم الهجومية على مصادر ثانوية، لا يعتد بها فى أغلب الأحوال.

ويجمل مارشال وجهة نظر الكتاب الغربيين فى قوله: «إن قابلية الإسلام للطعن وعدم قدرته على التصدى أمر يتفق عليه معظم الباحثين الغربيين»، ويشكو مارشال ومعه بعض الكتاب الغربيين من شدة رفض المسلمين للاعتراف بهذه المشكلة أو الارتقاع إلى المستوى الذى يمكنهم من فهمها، ومن شدة تمسكهم بصحة ما لديهم، واعتمادا على تقرير كيت زيبيرى فإن أحدث عمل تنصيرى يطعن كاتبه فى القرآن فى الوقت الحالى، فهو كتاب جيل كرايست وعنوانه «جمع القرآن» وقد اعتمد الكاتب فى كتابه هذا على بعض المصادر الأصلية فى علوم القرآن وفى الحديث والسيرة النبوية، كما اعتمد على بعض أعمال كبار المستشرقين مثل جيفرى، نولدكه، وات ومرجليوث.

ويتلخص عمل جيل كرايست فى أن قول المسلمين بعصمة

النص القرآنى غير صحيحة إذ أن هناك براهين - من وجهة نظره بالطبع - تثبت تحريف القرآن، وهذا الكلام لا يتعدى حد الوهم والافتراء معا، ولأن هذا البحث لا يتسع للرد على مزاعم هؤلاء المستشرقين بالتفصيل فإننا نحيل القارئ إلى كتابنا القرآن الكريم من المنظور الاستشراقى (تحت الطبع) وردنا على منجانا بمجلة المركز الثقافى الإسلامى بلندن (١٩٩٣).

ونكرر هذا باختصار ما قلناه هناك بالتفصيل من أن المنصرين والمستشرقين قد تمسكوا بروايات ضعيفة متهافتة لا تثبت على الفحص العلمى ولا تؤيد بحال ما يراه المستشرقون من دعوى تحريف القرآن. لقد ضل الكتاب الغربيون فى شعاب هذه الروايات ووعثها والتى لم يفهموها على وجهها، ولم يميزوا بين غثها وثمينها، وصحيحها، وسقيمها، بل اكتفوا بالتقاطها وبناء نتائج ظنية ضعيفة ومتهافتة عليها، وتهادوها فيما بينهم، وقلنا أيضا إنهم أخطأوا عندما قاسوا القرآن على كتبهم وتجاهلوا الظروف والأحوال المختلفة لكل من كتبهم والقرآن ورضوا بوزن الدرّ بالبعر حتى يصلوا بأنفسهم إلى حد الرضا الزائف والانتصار الكاذب.

إن دعوة محمد، عند وات للأسف ليست إلا مجرد مهنة Vocation، وحركة دينية، سبقتها حركات دينية أخرى كثيرة. religous movement (P.33) ويعتبر المستشرق نفسه أن القرآن من نتاج عقل محمد، وهكذا فإن دعوة محمد ﷺ قد أصبحت فى نظر وات مهنة، والقرآن الكريم قد صار عنده كذلك نوعا من

الأدب لا صلة له بالوحى The product of Muhammad، ويزعم وات أيضا أن محمدا قد تلقى معلوماته من كتب العهد القديم والجديد شفهيا، يقصد وات بهذا تبرير الخلاف الواقع بين ما جاء به القرآن وبين ماهو فى هذه الكتب السابقة عليه، هذا مع أنه كان من المتوقع أن يلجأ وات إلى نظرية الانتحال الشفهى هذه للتوفيق بين اعتقاد المسلمين بأمية نبيهم ﷺ وبين زعم المستشرقين والمنصرين فى انتحاله ﷺ من كتب اليهود والنصارى، ولكنه لم يفعل ذلك إذ أنه يصر مع كثير من المستشرقين على أن رسول الله ﷺ لم يكن أميا بل كان قارئا وكاتبا، ويبنى وات رأيه هذا على الزعم بأن تجار أهل مكة كانوا قارئين كاتبين، وأن محمدا كان كذلك يشاركهم هذه المهنة كما يشاركهم فى معرفة القراءة والكتابة، لقد تلقى محمد معلوماته شفهيا من هذه الكتب لعدم وجود نصوص مكتوبة وليس بسبب أنه كان أمياء وهذا كلام غير معقول بالمرة، ولا تتضمن دليلا فاعلا يؤيد زعم قائله، وقد قلنا فى موضع آخر إن القرآن، قد نفى معرفة محمد بالقراءة والكتابة نفيا قاطعا، «**وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون**» (العنكبوت ٤٨).

وقد تكرر وصفه ﷺ فى القرآن بالأمية والتى معناها، فى لغة العرب عدم القدرة على القراءة والكتابة لا الأمية التى هى بمعنى الأممى، يعنى غير اليهودى كما زعم وات ثم إنه من المعروف تاريخيا أنه لم تكن هناك فى مكة مدارس ولا إرساليات ولا تعليم خاص ولا حركة علمية واسعة، وحتى لو وجد هذا التعليم

الخاص لما تسنى لمحمد الذى ولد يتيما ونشأ فقيرا أن يتحصل عليه أبدا؛ ثم إنه لم يكن من الواجب على التاجر النابه أن يكون قارئا كاتبا كذلك حتى يكون محمد مضطرا إلى معرفة القراءة والكتابة كضرورة من ضرورات التجارة، مع أن محمدا لم يكن معروفا بين قومه بالتجارة، وأنه لم يعمل فى هذه الحرفة إلا وقتا قصيرا وليس لحسابه وإنما لحساب زوجه خديجة ـ رضى الله عنها ـ.

يقول وات بعد ذلك بأن محمداً قابل ولابد النصارى واليهود العرب الذين كانوا يعيشون على أطراف الجزيرة العربية والذين كانوا معنيين بالحديث فى الدين، وتلقى عنهم وتأثر بهم فى كتابة القرآن، يبدو أن كاتبنا مغرم بالافتراضات والتخمينات، وكأنه مفروض عليه، أو هكذا كان يشعر، أن يعلل لماذا انتصر الإسلام ولماذا ساد القرآن، وتغلب على غيره من الكتب، وشاع ذكره وتضوع شذاه فى أنحاء المعمورة وذلك على مدى ربع قرن من الزمان من وفاة متلقيه ومبلغه ومبينه ﷺ.

يقرر وات فى خاتمة هذا الموضوع بوضوح أن محمدا قد انتقى معلوماته الكتابية، يعنى اليهودية والنصرانية المتضمنة فى القرآن، من البيئة العربية التى كانت تحيط به فى مكة، وليس من شخص بعينه ولا من خلال قراءته لكتاب بذاته كذلك، ويتوصل وات من خلال دراسته التخمينية تلك إلى أن الإسلام ماهو إلا دين منبثق عن التراث اليهودى النصرانى وذلك لأن الإسلام قد نشأ فى بيئة كانت متأثرة بالأفكار الكتابية (اليهودية والنصرانية)

أيما تأثر، ولهذا يتفق كاتبنا مع الكتاب اليهود والنصارى للترويج لدعوى انتحال القرآن من الكتب المذكورة، ويضيف الكاتب قائلا: «ولكن السؤال الذى يهمنا هو لماذا اهتم محمد والمسلمون بنقل بعض الأفكار الكتابية دون بعض»، والإجابة على هذا السؤال من وجهة نظره تتطلب دراسات خاصة، وأن مثل هذه الدراسات قد بدأت تظهر وتتطور بالفعل فى القرب، ثم يشير المستشرق وات إلى القوانين الثلاثة التى وضعها السير هاميلتون جب، والتى تحكم تأثير حضارة ما، على حضارة ما أخرى، من وجهة نظره (P. 42) ودون أن ندخل فى التفاصيل نقول: «إننا إذا أخذنا بهذه القوانين الثلاثة التى تقوم على الرصد أكثر من التأصيل والتحليل، من وجهة نظرى ككاتب مسلم، لاحظنا أنها لا تؤيد دعوى وات أبدا، فقد كانت مكة بيئة دينية حتى قبل ظهور اليهودية والنصرانية، وقد كان البيت الحرام هو الرمز البارز والدائم للدينية العربية فى جانبيها الروحى والمادى، ولقد كان حجاج العرب يفدون على هذا البيت من أنحاء الجزيرة يطوفون به، ويتجرون حوله، ويتجمعون بجواره لإلقاء الخطب والأشعار، ويتعاهدون عنده فى الأمور العظام، ولم يكن العرب ليقبلوا بسهولة أى دين آخر يخترق صفوفهم أو يدخل بلادهم، أو يصل إلى قلوبهم، ويكفى أن نعرف أنهم انزعجوا أيما انزعاج عندما شن النصارى هجومهم على مكة قبل البعثة النبوية وقاوموا تلك الحملة التى توجه بها أبرهة الأشرم من الحبشة إلى الكعبة كما فى القصة التى حفظها الله لنا فى سورة الفيل، كذلك لم تكن

هناك صلات دينية بين اليهود وبين العرب؛ فمن أين إذاً جاءت تلك البيئة اليهودية النصرانية التى يزعم وات أنها كانت سائدة فى مكة وأنها هى التى مهدت للإسلام وأمدته بالأفكار والمعتقدات؟! وبعد كلام طويل عن مبادئ علم الاجتماع والتكيف الاجتماعى، يقرر المستشرق منتجمرى وات أن الإسلام ينبغى أن يدرس فى نطاق التأثيرات المباشرة للحياة المادية التى كانت سائدة على عصر محمد (PP. 45ff) فالعرب البدو كانوا قد تحولوا من زمن بعيد من الحياة البدوية البسيطة والقاسية إلى حياة التجارة والحضارة، يريد الكاتب أن يتوصل من تلك المقدمة المفتعلة إلى نقطتين مهمتين:

الأولى: أن محمداً كان تاجراً بالوراثة، وبالتالى كان مثقفاً وملماً بأحوال مجتمعه وما يجرى فيه من آراء دينية.

والثانية: انفتاح المجتمع المكى وظهور الحركة الدينية فيه، والتى ساعدت على ظهور الإسلام. ولذلك فقد دعا محمد قومه التجار إلى الإحسان فى المال، وإلى العودة إلى الأخلاق البدوية التى اهتزت بسبب الوضع المادى الجديد الذى تحولت إليه مكة (P. 52) ولسنا ندرى كيف كان محمد يدعو قومه إلى العودة إلى الأخلاق البدوية؟ والمعروف أن محمدا صاحب رسالة إلهية عالمية أعلنها منذ بداية دعوته، وأنه بعث ﷺ بالإسلام يعنى الحنيفية السمحة، لا بالبدوية الضيقة المنغلقة، أو غيرها، وأنه كان يدعو قومه إلى التخلق بأخلاق الإسلام التى هى أخلاق جميع الأنبياء وجاءت به جميع الرسالات السابقة عليه، إنه من المستغرب حقا

أن يكتب منتجمرى وات مثل هذا الكلام : "the attempt is being made to revive some of the virtues of the desert in this new urban society (p. 53).

ويؤكد وات زعمه هذا بقوله إن تأكيد محمد على وجوب تحقيق معانى الكرم والإحسان إلى الفقراء والضعاف، وغياب الحديث فى دعوته عن احترام الحياة والملكية الخاصة وعن الزواج، والتى تمثل أساس الحياة الاجتماعية متسقة تماماً مع الموقف الجديد لأهل مكة. يعنى المستشرق بذلك التحول الاجتماعى الذى حدث فى هذه البيئة.

ويجمل وات وجهة نظره فى طبيعة الإسلام ومصدره فى العبارات التالية والتى ختم بها الباب الثانى من كتابه (p. 55) بالإشارة إلى موضوع الآيات الشيطانية المزعومة ليتوصل منها مرة أخرى إلى الطعن فى القرآن. إذ نراه يربط بينها وبين الأصنام الثلاثة اللات والعزى ومناة بالرغم من عدم وجود أى رابط بينها، ويحكم وات بصحة الواقعة مع الإهمال المتعمد لكل الأدلة التى تجتمع على بطلانها، وهو يصل من خلال هذه القصة الملفقة إلى القول بغموض عقيدة التوحيد فى الفكر المحمدى كما توحى به عباراته وفى الوقت نفسه فإنه يقول بأن الآيات الشيطانية كانت قد نسخت فيما بعد ولكننا (يعنى هو وقبيله) مع هذا نستطيع أن نحدد المدة الواقعة بين صدور الأمر بعبادة هذه الغرانيق، وبين نسخ هذا الحكم؛ ويرى وات أن هذه المدة تقدر بأسبوع أو شهر، ومن وجهة نظره فإن محمداً كان على أية حال

فى حاجة إلى وقت كاف ليكتشف فيه خطورة هذا الموقف على دعوته، وبطريق القياس والتفكير خطط محمد فى الخروج منه ولذلك فإنه يبدو واضحاً أن محمداً قد خشى إذا ترك الأمر هكذا أن ترتفع مكانة الكهنة وسدنة هذه الأصنام إلى مكانته هو وبالتالى أمكن لهم أن ينافسوه الزعامة فى مكة بعد ذلك (p. 64).

محمد فى المدينة

بعد هذا الحديث عن الرسول ﷺ فى مكة يقفز وات ليتحدث عنه ﷺ فى المدينة يقول : «إن محمداً عندما ذهب إلى المدينة قد تبنى العقائد والشعائر اليهودية هناك ونسج على منوالها الإسلام فقد تبنى مثلاً صيام يوم عاشوراء، وصلاة الجمعة التى قلد فيها اليهود حيث أنهم كانوا يعدون فيها لاستقبال السبت فأخذها محمد عنهم وصيرها علامة على التجمع الإسلامى» (p. 99). وفى هذه القرينة نشير إلى المستشرق مارجليوث الذى يتفق مع وات فى أن الإسلام دين مستعار فى كل شىء تقريباً، ويزعم مثلاً أن كلمة سلام التى هى تحية المسلمين مأخوذة من يهود المدينة لكن محمداً بينما استعملها فى الغرض نفسه، وهو إلقاء التحية، فإنه توسع فى مفهومها وأضافها إلى القرآن. وكلمة إسلام التى هى دلالة على هذا الدين أيضاً منتحلة من وجهة نظر هذا المستشرق، وكذلك كلمة حنيفية يزعم مارجليوث أن محمداً انتحلها من مسيلمة الكذاب متنبىء بنى حنيفة، والذى كان يطلق على أتباعه لفظ مسلمين أو حنيفيين فأخذ محمد هذين الاسمين وأطلقهما على أتباعه. والإسلام فى نظر هذا الكاتب عبارة عن

مذهب لفرقة وليس ديناً لأمة. ويزعم مارجليوث أيضاً أن كلمة حنيف تعنى فى العبرية منافق، وفى السريانية وثنى، إلا أن أتقياء المسلمين لم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن أصل الكلمة، بل قبلوها كما أداها إليهم محمد، هكذا دون فحص؛ أما الاسم الآخر يعنى «مسلم» فإن معناه خائن، وهو من إسلام المرء لصديقه عن طريق الخيانة، غير أن محمداً قد أعطاه هو الآخر معنى أو مفهوماً مشرفاً، فبعد أن كانت الكلمة تعنى فى البداية إسلام الشخص أصدقاءه لأعدائهم والتخلى عنهم، جعلها محمد بحيث تعنى إسلام المرء نفسه لله بالكلية. وربما يرجع القول بأن النبى ﷺ كان مصاباً بداء الصرع إلى مارجليوث هذا(١).

ونعود فنواصل كلامنا مع وات يقول : «لقد كان محمد يتمنى أن يعترف به اليهود على أى نحو كان، لأنه كان يشعر أنه بدون اعترافهم به سوف لا يمكنه بناء دعوته، وأنه كان على استعداد أن يمنحهم حرية ممارسة دينهم إذا اعترفوا به». وهذا كلام غير مقبول، فإن النبى ﷺ لم يجبر اليهود على الاعتراف به ولكنه على العكس وادعهم وترك لهم حرية الاعتقاد، وكتب معهم وثيقة ثبت فيها قاعدة التسامح الدينى والاعتراف بالآخر كما هو، لا كما ينبغى أن يكون بالنسبة للغير، وكون محمد ﷺ قد كان يتمنى دخول اليهود فى الإسلام أمر لا نجادل فيه لأن النبى ﷺ بعث رحمة للعالمين وأنه كان يتمنى دخول اليهود وغير اليهود فى الإسلام، ولكنه فى الوقت نفسه لم يفرض رغبته على أحد ولم يكره أحداً كذلك على الدخول فى دينه.

(1) Mohammed and the rise of Islam G.P. Putnams sons. New York & London P. 1906 P. 84.

ومن تقريرات وات غير الصائبة أيضاً زعمه بأن الظروف والأحوال التى كان يعيشها العالم على عهد محمد هى التى أمدته بالقوى المتنوعة التى ضمنت للإسلام الانتشار، فقد كانت مكة والمدينة غير مستقرتين اجتماعياً ومن حيث «الاتجاه إلى الوحدانية»، وكانت الثورة على الهللينية فى سوريا ومصر متنامية، وسقوط الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية، كان وشيكاً، كل هذا وغيره من العوامل قد أمد محمداً بالقوة لنشر دينه، هذا بالإضافة إلى مؤهلات محمد الشخصية وموهبته as a seer ككاهن والتى كان يعمل من خلالها أو من خلال الوحى الذى صنع له through the revelations made to him (P. 236).

إن مصدر القرآن فى نظر المستشرق وات هو خيال محمد ثم اليهودية والنصرانية.

the product of the creative imagination

ويذهب وات فى نهاية المطاف إلى القول بأن كل ما فى القرآن ليس حقائق (P. 239). وهو بعد هذا الشوط وفى آخر الكتاب لايزال يعيد هذا التساؤل، هل كان محمد نبياً؟

وهو يجيب على هذا التساؤل بقوله : «إنه (أى محمد) كان إنساناً عملت فى داخله قوة الخيال على أعمق مستوى فأنتجت فى ذهنه أفكاراً مناسبة للأسئلة الرئيسية للوجود الإنسانى، وهكذا فإن ديانته قد حازت على قبول واسع، وتأثير عميق ليس فقط فى عصره ولكن على مدار القرون التالية.

ويضع وات آخر كلمات هذا الكتاب هكذا «ليست كل الأفكار

التى أعلنها (محمد) حقيقية وصحيحة، ولكن بفضل الله قد استطاع محمد أن يمد ملايين الرجال بديانة أفضل من تلك التى كانت لديهم من قبل، لقد شهدوا بفضل الإسلام أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» وهو هنا يتحدث عن العرب لا غير. (P.240).

وجهة نظر المسيحية فى الإسلام
«خطة عمل تنصيرية» لمؤلفه ماريسون

G.E Marrison

The christian approah to the Muslim Mind An outline London Edinburgh House Press 1964

يبدأ المؤلف كلامه فى الباب الأول بما يشبه الاعتراض على اعتقاد المسلمين بأن الإسلام هو دين الله، وأنه يبدأ من آدم عليه السلام وينتهى بمحمد ﷺ.

وفى الصفحة التالية (p. 15) يقرر أنه بالنسبة لحياة محمد فقد كتب الكثير جداً عنها، ولكن أقل القليل من هذا الذى كتب عنه يعتبر صحيحاً. ثم يقول بعده مباشرة : إنه «بعد موت محمد قد اعتبره بعض المتحمسين من أتباعه قديساً، Saint. وأسندوا إليه بعض المعجزات ... وبعضهم قد اعتقد أنه كان إنساناً صالحاً، وبالتالى اتخذوه نموذجاً حذوا حذوه وقلدوه فى كل شىء. وبمرور الوقت جمعت أقوال كثيرة عزيت إليه ثم أضيف إليها فيما بعد بعض الأقوال الأخرى التى تصف أعماله وعاداته (يعنى السنة) والتى اتخذت فى مرحلة لاحقة كنماذج هادية لأصحابه ... ثم يقول فى (p. 17) أن محمداً قد تأثر باليهود والنصارى الذين جاملهم عندما توجه إلى بيت المقدس فى صلاته، ولكنه بعد أن قوى شأنه، ولاحظ أن اليهود فى المدينة لا يأبهون به غيّر بالتالى وجهته فى الصلاة نحو الكعبة وأدار ظهره لليهود، ثم استقل شيئاً فشيئا عنهم، بل لقد خالفهم وعاداهم.

وقد اتضح هذا عندما أصدر محمد أمرة لأصحابه بالتوجه نحو الكعبة فى الصلاة، بدلاً من بيت المقدس، والحقيقة أن الآمر هو الله وليس محمد؛ ثم يقول : «إن القرآن المدنى يشكل قاعدة الحياة الأسرية فى الإسلام وإن تأثير هذه الآيات التى نزلت بالمدينة، وإن كان من شأنها تنظيم أو تحسين التقاليد العربية القائمة على نحو ما.

Quranic revelations of the Medina period lay down the basis of Islamic family life. Their effect 'The Qur was to regularize and in some ways to ameliorate existing Arab custom. Thus polygamy was permitted, but only up to four wives at one bime, and at that on condition that the husband should treat them equally. (p. 19).

ونحن إذ نكبر للكاتب تقديره لشخصية الرسول الكريم ﷺ واعترافه بأصالة مؤهلاته، وسموِّ امتيازاته الشخصية، إلا أننا لا نوافقه على ربط الإسلام بشخصية الرسول ﷺ وأعماله كإنسان فحسب، وعدم رد الإسلام إلى مصدره الإلهى.

ثم إن كلام المؤلف عن القرآن، ومقارنته بالكتاب المقدس لا يخلو من محاولة إنصاف ولكننا أيضاً لا نوافقه فى القول بأن القرآن قد كتبه شخص واحد فى مدة قصيرة وذلك مقارنة بالكتاب المقدس بالطبع The Quran "Came to be written down, humanly speaking through one man over a short period of time" (p. 21) ويقول الكاتب بأن القرآن يمثل وحدة واحدة باعتبار مجيئه فى مدة محددة من الزمان فحسب أما إذا نظرنا إليه ككتاب فإننا سنجده عبارة عن خليط لا تجمعه وحدة موضوعية واحدة، إذ أنه لا يعدو أن يكون موادّ مجمعة

ومصنعة بطريقة خاصة، لم يراع فيها تواريخ النزول أو سياق الموضوعات. "a mixture of assorted materials, in which the present arrangment does not follow either their chrondogy or their subject matter".

إن وحدة القرآن من وجهة نظر ماريسون تتجلى فى الروح التى تتخلله فحسب، والتى تعكس شخصية إنسان واحد، كان قد اقتنع برسالته المتميزة وبعلاقته الخاصة بالله تعالى.

إن هذا الكلام ينطوى على عدة محاذير فالكاتب يحاول بلاشك أن يكون منصفاً فى حديثه عن الإسلام وهو يحاول كذلك أن يقرب بين وجهات النظر المسيحية والإسلامية وأن يتفادى فى الوقت نفسه السقوط فى الشعاب التنصيرية الوعرة، ولكن محاولته على الرغم من هذا لا تؤدى إلى إدراك الحقيقة الخالصة، ولا تحقق الإنصاف كاملاً.

فالقرآن لا يرتبط بشخصية النبى ﷺ، نعم إن النبى وحده هو الذى تلقى القرآن من لدن حكيم حميد كما ذكر المؤلف، ولكن القرآن ليس ترجمة ذاتية، أو دلالة كلامية نفسية على شخصية النبى الذى جاء به، اللهم إلا كما قالت السيدة عائشة رضى الله عنها عندما سئلت عن أخلاقه ﷺ فقالت : (كان خلقه القرآن) تعنى أنه كان يعمل بالوحى الذى نزل عليه، ولم يكن حفظه له مجرد حفظ نظرى ولم يكن دوره كذلك ليقتصر على مجرد نقله إلى الآخرين.

ولا يفوتنا أن ننبه فى هذه القرينة على أن الكاتب قد أصاب

حقاً فى إسناد القرآن كله إلى النبى ﷺ وبالتالى فقد ميزه عن كتب اليهود والنصارى التى كتبها أكثر من كاتب فى أزمنة مختلفة، وتحت ظروف مختلفة كذلك. ونعود إلى موضوعنا فنقول إنه لم يكن لكتّاب الوحى، أو لهؤلاء الذين جمعوا القرآن فى حياته وبعد مماته ﷺ، أى دخل فى ترتيب القرآن، سواء بالنسبة للسور أو بالنسبة للآيات، ولم يكن لهم أى دور كذلك فى تحديد أحجام السور أو الآيات، ولم يكن السجع، أو اتفاق أواخر الكلمات هو أساس ترتيب القرآن كذلك كما وهم أو زعم ماريسون (p. 21f).

لم يفت الكاتب أن يلاحظ ما فى الإسلام من سماحة وقدرة على التعامل مع غير المسلمين أو الأقليات، Minorities. فقد ذكر أن القرآن سماهم بأهل الكتاب، بمعنى أن لهم فضيلة تناول كتاب سماوى سابق، وأعطاهم الإسلام كذلك مكانة طيبة فى المجتمع المسلم، لكنه مع هذا وضعهم فى منزلة دنيا، وفرض عليهم مبلغاً من المال يؤدونه للدولة وهو الجزية، مما جعل عدد النصارى يتضاءل فى هذه المنطقة، وذلك بسبب الضغوط الاقتصادية والاجتماعية التى تعرضوا لها، إذ أنهم كانوا يدخلون فى الإسلام تجنباً لهذا الضغط. وفى الحقيقة أن الإسلام لم يضع اليهود أو النصارى فى منزلة دنيا، بل إنه سواهم بالمسلمين فى الأمور العامة والمشتركة بينهم، وسوى بينهم كذلك فى الحقوق والواجبات ماعدا تلك الأمور التى تتعلق بالعقائد الخاصة بأهل كل دين. وقاعدة الإسلام الذهبية تلخصها هذه العبارة «لهم ما لنا وعليهم ما علينا»، و «شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد به

ناسخ» كما ذكرناه فى أكثر من موضع فى هذا الكتاب. وأما عن الجزية فإنه ينبغى أن نعرف أنها شرعت لأهل الكتاب كما شرعت الزكاة بأنواعها المختلفة لأهل الإسلام وشأن الجزية كشأن الزكاة لا يؤديها من لم يتوفر لديه النصاب ولا يكون قادراً على الكسب، بل إن العاجز يُعَانُ من الدولة سواء أكان هذا العاجز مسلماً أو نصرانياً أو يهودياً أو مجوسياً، وذلك بلا تمييز بينهم. ثم إن الجزية لا تحصل من أهل الكتاب الذين هم فى حماية القانون الإسلامى إلا فى مقابل خدمة تقدمها لهم الدولة المسلمة كالحماية والرعاية مثلاً، وأما قوله بأن أهل الكتاب كانوا قد وضعوا فى مرتبة دنيا فى المجتمع الإسلامى، فهذا غير صحيح وعلى فرض وقوعه فى وقت ما أو فى جهة ما من جهات العالم الإسلامى فإن ذلك ينبغى أن يفسر على أنه ظاهرة اجتماعية لا دينية، وظاهرة قد تكون مرضية وقد تكون صحية فى الوقت نفسه، فالأقلية إذا أجزنا لأنفسنا استعمال هذا التعبير، فى أى مجتمع لابد أن تكون متميزة أو ظاهرة سواء أكانت فى مرتبة عليا أو فى مرتبة دنيا، وإلا لابتلعتها الأكثرية أو الأغلبية، ولم تستطع الأقلية أن تحافظ على نفسها، وإن أهم ما تسعى إليه الأقلية هو المحافظة على وجودها فى محيط الأغلبية، وفى مواجهة تيارها الجارف. وينبغى أن ندرك وبنفس الدرجة من العمق بأن المساواة فى كل شىء بين الأقلية والأغلبية لا يجعل للأقلية معنى ولا ميزة بل ولا مكان، ولذلك نلاحظ دائماً أن الأقلية إما أن تكون فى القمة، ولها السيطرة على الأغلبية، لظروف معقدة لا مجال

لشـرحـهـا هـنـا، كـحكومـة جنوب أفـريقـيـا العـنصـرية السـابقـة، أو كـالأقليات اليـهودية والـصـهـيونية منها بالذات، والتى تـهيمن على القـرار العـالمى بكل أشكاله ومسـتـوياته، والتى تعيش فى القمـة وسط المجـتـمـعـات الأوروبيـة والأمـريكيـة بمؤسـسـاتـهـا ومنظمـاتـهـا وهيـئـاتـهـا المـخـتـلفـة؛ وإما أن تكون كالأقلية المسلمـة فى فـرنسـا وأوروبا وأمـريكا بشـكل عـام، والتى تعـيش فى قـاع المجـتـمـعـات الغربية أو قـريباً من سطحـهـا قليلاً. وأمـا قـول الكاتب بأن الذين دخلوا فى الإسـلام من أهل الكتاب إنما دخلوه لأسباب اقتصادية واجتماعية، يقصد أن دخولهم فى الإسلام كان بسبب معاناتهم من دفع الجـزية ولشـعـورهم أيضـاً بالدونية فى المجـتـمـع المسلم، فـغـيـر صـحـيـح بالمرة، وإلا بماذا يفـسـر الكاتب مـاريسـون تلك الضغوط والتكاليف الباهظة التى كانت تفرضـهـا الدولة البيزنطيـة على رعـاياهـا من النصـارى العـرب والتى جـعلت الكثـيـر منـهـم يسـرع بالدخـول فى الإسـلام هروباً من تعـسـف الديكتـاتـورية البـيـزنطيـة، ولما لمسوه من عدالة فـى ظل الإسـلام ولما وجـدوه من سمـاحـة فى التـعـامل مع المسلمين، وسـرعـة اندمـاج المسلمين فى المجـتـمـعـات الجـديدة وبناء عـلاقـات اجـتـمـاعـيـة وطيـدة مع أهل المجتمع الجديد. ونسـأل أيضـاً بماذا يفسـر الكاتب دخول أعـداد كثيرة من المسيحيين والوثنيين وأهل الديانات الأخرى فى الإسـلام دون أن يتوجـه إليـهم أحد بالدعوة أصـلاً ودون أن يفـرض عليـهم حـاكم أى تكاليف مـدنيـة أو غيـرها؟ وكـيف يـتـجـاهل الكاتب فى الوقت نفـسـه انتـشـار الإسـلام على أيدى التـجـار والرحـالة

المسلمين، وعلى أيدى العلمـاء وأوليـاء الله الصـالحين الذين انتشروا فى آسيا وأفريقيا كما قرره الكاتب نفسه عند كلامه عن الفتوحات الإسلامية؛ فقد ذكر ماريسون أن الفتوحات الإسلامية لم تكن هى وحدها السبب فى دخول هذه الأعداد الغفيرة فى الإسلام، بل لقد ساهم التجار والمتصوفة والزهاد فى نشر الإسلام بالحكمة والأسوة الحسنة. لقد ثبت الإسلام أقدامه على أراض غير إسلامية، وبين أمم لا يحكمها الإسلام، ولم يكن للمسلمين فيها أى قوة مادية تذكر ومع ذلك فقد قوى شأن الإسلام فى مثل هذه البلدان.

لقد حمل التجار المسلمون العقيدة الإسلامية وما يتبعها من عبادات ومعاملات وأخلاق وثقافة وتقاليد وعوائد صالحة، معهم إلى سكان البلاد النائية فى قارتى آسيا وأفريقيا، كما استطاعوا أن يؤسسوا جاليات إسلامية قوية فى هذه البقاع. وأن يسمعوا أصواتهم لحكام هذه البلاد التى نزلوا بها وجاءوا إليها بالخيرات الدينية والدنيوية، وبهذه الطريقة جذب هؤلاء النفر من المسلمين بحسن أخلاقهم وجميل سمتهم أنظار أرباب البلاد إلى الإسلام فآمنوا به واتبعوا تعاليمه، وكانوا هم الرعاة المحليون له، وبهذا اتسع مدى الإسلام وطار اسمه فى الآفاق.

نعم نحن لا نمانع فى أن يكون بعض النصارى قد دخل فى الدين الجديد لمصلحة رآها أو لنهزة قدرها فى نفسه تقديراً فمثل هذه الطرائق من طبائع البشر، ولكن مثل هذا المثل المنبت، إذا ثبت وجوده، لا يعنى أن نعمم القول بأن العوامل الاقتصادية

وحب الرياسة والوجاهة كان من وراء دخول نصارى العرب فى الإسلام؛ لقد دخلت إندونيسيا مثلاً فى دين الله أفواجاً، وبعد أن انتشر الإسلام فى الأجزاء الشمالية لسومطره فى نهاية القرن الثالث عشر انتقل إلى الملايو والفلبين وماليزيا وسيلان والهند والصين ثم اليابان فيما بعد.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل لقد فرض المسلمون سلطانهم على المحيط الهندى وسيطروا على معظم تجارات المدن الواقعة وراء هذا المحيط.

ونركز هنا على ما ذكره الكاتب فى الباب السادس من هذا الكتاب بصفة خاصة وهذا الباب بعنوان الإسلام والغرب. 'Islam & the West. وفيه يتحدث الكاتب عن حالة العالم الإسلامى منذ القرن السادس عشر، فقد كان هذا القرن بداية عهد جديد للامتيازات الإسلامية والتى انتهت باندلاع الحرب العالمية الأولى.

إنه وحتى عام ١٤٩٧ م كانت روح العداء لاتزال تسيطر على العلاقة بين النصارى الغربيين والمسلمين، وغالباً ما كان هذا الشعور بالعداء يتمخض عن نزاع حاد بين الفريقين.

لقد أخضع المسلمون النصارى لحكمهم، واستولوا على الممالك النصرانية ووقفوا سداً منيعاً ضد الزحف النصرانى على بلاد حوض البحر المتوسط وأفريقيا وآسيا بصفة عامة.

وبوصول البرتغال إلى المحيط الهندى، تغيرت كل هذه الثوابت فقد جاز ملاحوهم وجازت قواتهم الاستعمارية بلدان الشرق

الأوسط، واستطاعوا بالتالى أن يضعوا أيديهم على ثروات شبه القارة الهندية، وأن يحتلوا فى الوقت نفسه مواقع حساسة تمكنهم من ضرب الوجود الإسلامى وتحطيم القوى الإسلامية والنفوذ الإسلامى هناك.

وكسبب مباشر لسياسة الفونسو دى البوكويرك، أكبر بناة امبراطوريتهم استطاع البرتغاليون أن يستولوا على تجارة المسلمين البحرية فى الشرق Goa Malacca Ormuz. وكان البرتغاليون يفضلون الاستعانة بغير المسلمين فى أعمالهم وإداراتهم فى الأماكن التى أحكموا قبضتهم عليها. وهكذا فقد ظهرت روح العداء القديمة أكثر بين المسلمين المضارين والمسيحيين المنتفعين من الوضع الجديد فى المنطقة وهذا العداء المجدد استمر لمدة تزيد على الأربعة قرون.

لقد وجدت أوروبا نفسها بإزاء نموذج فذ، وتجربة تحتذى فى التوصل إلى السيطرة على العالم الإسلامى وإخماد حركة المسلمين، إذ أنها تعلمت من الفونسو أن القوة وحدها هى التى تستطيع تحقيق الحلم الغربى أو الصليبى فى السيطرة على المسلمين، وبناء امبراطورية غربية عظيمة تتمتع بثروات ومدخرات الشرق والعالم الإسلامى بصفة خاصة. ولايزال هذا المنطق هو المسيطر على العقلية الأوروبية والأمريكية إلى اليوم، فالقوة المتمثلة فى السلاح وفى القواعد والأحلاف العسكرية هى التى يحسب لها الغرب كل حساب ويرصدها ويطورها دائماً لتحقيق مطالبه ومطامعه فى العالم الإسلامى.

أما كراهية المسلمين للغرب وانعدام الثقة فى الغربيين فقد ازدادت قوة عندهم واستمرت كذلك تسيطر على مشاعرهم، وسوف تستمر إلى آماد بعيدة ولكن المسلمين لم يستطيعوا الإعراب عنها، أو ترجمتها عملياً فى شكل مقاومة واستمرت هذه الروح العدائية بعد ذلك حتى وجدت فرصتها أخيراً فى تيار القومية العربية فنفخت فيه وأججته، ثم استعملته كسلاح حاد ضد الغرب فى بداية هذا القرن.

لقد فعلت بعض الدول الغربية ما فعلته البرتغال فى العالم الإسلامى، فاستعمرت بريطانيا الهند. واستعمرت هولندا إندونيسيا أو الهند الشرقية، كما زحفت فرنسا على الدول الأفريقية. واحتلت هذه القوى الاستعمارية البلدان الإسلامية وحكمتها بالقوة لعدة قرون، هذا ولم تسفر هذه التواجدات الاستعمارية فى بلاد المسلمين عن أى علاقة حسنة، أو تعاون بناء بين المسلمين والغربيين، بل لقد ازداد الشعور بالعداء للغرب حدة ومرارة، ولم يستطع المنصِّرون المصاحبون لهذه الحملات أن يحدثوا أى تأثير فى نفوس أهالى هذه البلاد، حتى فى نفوس النصارى المصريين والعرب بوجه عام، كما تشهد به أقوال المنصِّرين بل وتصريحات اللورد كرومر المندوب السامى البريطانى فى مصر.

يتتبع الكاتب الصراع الذى كان دائراً بين الاستعمار والبلدان الإسلامية المستعمرة وحركات التحرر والإصلاح فى العالم العربى كله وعلى سبيل المثال حركة الإمام محمد بن عبدالوهاب

فى الجزيرة العربية، وحركة قاسم أمين (تحرير المرأة) وحركة الإمام محمد عبده التى استهدفت إصلاح الأزهر فى مصر، وإصلاح التربية، مناهجها ووسائلها بشكل عام.

وفى الباب السابع والأخير من الكتاب يبين ماريسون موقف المسيحية من الإسلام بوضوح.

فيقول إن اهتمام المسيحية بالأديان الأخرى يتطلب منا نحن النصارى شيئاً أكثر من مجرد اعتبار الدين الآخر بمعزل عن ديننا، يعنى أنه يحاول أن يدرس الإسلام فى قرينة المسيحية وإطارها. إن دعوى المسيح العالمية وتفوق دعوته تحتم على النصارى تحديد وجهة نظرهم بالنسبة للإسلام.

يقول ماريسون إننا نجد فى الوقت نفسه الدعوى نفسها للدين الذى أسسه محمد، فهو يدعى عالمية رسالته وتفوق دعوته، وبالتالى فنحن نواجه موقفاً متوتراً يحتاج إلى حل.

يصور الكاتب الغربى أولاً موقف الإسلام من النصرانية على أنه غير مرضٍ لأنه قام على معلومات خاطئة تلقاها محمد وأتباعه من النصارى العرب (p. 64)، وعلى تعاليم زائفة كانت تطرح داخل بعض الكنائس، وعلى نصوص ليست مقدسة، وعلى معتقدات أمم نصرانية منقسمة على نفسها. كل هذه الأمور والاعتبارات قد حالت بين المسلمين والنصارى وباعدت بينهم، بل إنها قد حتمت ظهور دين جديد، هو الإسلام، يستطيع أن يلبى بالمطالب الروحية لذلك العصر.

ثم يقول «إن الإلهام الصادر عن محمد وأتباعه (هكذا) كان من الأفضل أن يواجه بعقيدة مسيحية حاسمة، تعلن بالعمل كما تعلن بالقول القوة المخلصة المتمثلة في حب الله وكما تجلت في جسد السيد المسيح» (p. 46). وهو هنا يجعل القرآن مجرد إلهام وليس وحياً أي أن محمداً أُلهمه كما يُلهم العلماء والكتاب المبدعون، وأن أتباعه شاركوه في هذا الإلهام.

ويمعن المنصِّر ماريسون في تنصير الإسلام نفسه فيقول (ولكن الصورة التي تنعكس على صفحات القرآن للكنيسة النصرانية على عهد محمد مثلت شيئاً أبعد كثيراً من أن يستطيع أي راغب نصراني أن يقاوم. والشيء المحزن هو أن هذه الصورة لاتزال تؤثر على رأي المسلمين بالنسبة للعقيدة الأرثوذكسية حتى في أيامنا هذه.

إن القرآن يخبر المسلمين بأن اليهود والنصارى قد حرفوا كتبهم، وبالتالي فالنصارى يتمسكون بنصوص زائفة (Fals texts) وبالتالي فعقائدهم ليست صحيحة، وبناء عليه فإن المسلمين لا يقبلون أن يولوا المسيحيين أي اعتبار على قاعدة كتابهم المقدس نفسه. وهذا الموقف قد ارتبط في أذهان المسلمين بدعوى محمد (ﷺ) إنه إنما جاء ليرد دعوة الأنبياء إلى سابق صفائها وإلهيتها، ولقد ربط محمد للأسف المسيحية بتلك المعلومات الخاطئة التي كان قد سمعها من أكثر من مصدر نصراني).

ويضيف ماريسون «إن الأدلة القرآنية توحي بأن محمداً لم يكن له اتصال مباشر بالنصوص النصرانية المعتمدة أو

القانونية، ولكنه فقط كان قد حصل على معلومات بدعية من مبتدعة النصارى واليهود، وثم سمع منهم أفكاراً أخرى بعد ذلك، لكنه لم يستطع أن يميز بينها وبين ما سمعه من قبل، ومن هنا جاء حكمه الخاص والخاطىء على المسيحية.

"the propht had no direct access to the canonical christian scriptures, but that he gained a hearsay knowledge of the Bible from both Jewish and christian informants. Moreover he heard many later traditions from these same informants and was unable to discriminate between them. It was these mixed influences which helped to build up the Muslim misinterpretation of christianity (Ibid p. 47) and its claims."

ويتبنى المؤلف وجهة النظر الاستشراقية والتنصيرية فى أن القرآن قد انتحل الكثير من كتب العهد القديم وبالأخص التوراة، ومن كتب العهد الجديد إلا أن ما جاء فى القرآن، مما هو خاص بالمسيحية فمأخوذ من الكتب النصرانية غير المعتمدة (أبو كريفل) إنه لا يوجد فى القرآن أى شىء مما ورد فى كتاب أعمال الرسل «للوقا» أو من رسائل «بولس» والتى على أساسها نظمت الكنيسة، وعلى الرغم من هذا فإنه توجد عبارة من عبارات «بولس» ربما تلقاها محمد شفاهة من بعض النصارى وذلك عن طريق الصدفة. هذا ولم يعرب المنصر الغربى عن هذه العبارة التى ادعى أن محمداً انتحلها من بولس (p. 40).

ويزعم ماريسون بالإضافة إلى ما سبق أن كثيراً من مادة موضوعات رسالة الوحى والإعلان «ليوحنا» موجودة فى القرآن، وبالأخص الموضوعات التى تتحدث عن الجنة والجحيم والموت

والحساب، هذا مع أننا لا نستطيع أن نثبت بالبرهان تأثر محمد (ﷺ) بهذه الرسالة أو حتى مجرد معرفته بها.

ولو صدق الكاتب مع نفسه لقال إنه لا توجد أدلة قط على أن محمداً قد نقل شيئا، أو وصل إليه شيء من نصوص كتب اليهود والنصارى، ولو صدق مع نفسه أكثر لأحجم عن اعتبار الإسلام ديانة أو فرقة نصرانية من مولدات ديانته، إن المنصِّرين للأسف يحاولون «تأميم» الإسلام لحسابهم، ولكن آراءهم واجتهاداتهم فى الحكم على الإسلام هى كالعهن المنفوش أو هى كالأعشاب لا تزيدها الوفرة والكثرة إلا مزيداً من الالتفاف والتشابك الذى يزيدها بدوره ضعفاً ووهناً ثم ذبولاً وجفافاً.

إنه ليحزننى، كإنسان، أن يقبل النصارى مزاعم رجل كبولس ويبنوا عليها دينهم ثم يرفضوا أن يسمعوا بإنصاف لمحمد ﷺ الذى اجتمعت على صدقه أدلة المنقول والمعقول وكانت طهارته وحسن سيرته هما مفتاح القلوب إلى اعتناق هذا الدين!

يذكر الكاتب بعد ذلك «أن القرآن قد رفع المسيح مكاناً عليا ومجده أيما تمجيد، ولكنه لم يرفعه إلى الدرجة الأسمى التى تتطلبها الديانة المسيحية»، وهذه المكانة التى وضع القرآن فيها المسيح تستند على قاعدة غير قاعدة الكنيسة، بل إنها تقوم على رفض العقائد النصرانية الأساسية. يشير الكاتب بهذا إلى رفض الإسلام لقضايا التجسد، والفداء، والكفارة، والتثليث ولكن ينبغى أن نعلم أن الإسلام، وليس المسيحية المتطورة هو الذى وضع المسيح فى مكانه الصحيح.

يشير الكاتب بعد ذلك إلى قصة الميلاد العذرى كما وردت فى القرآن مفصلة بمفاهيمها الإلهية الحقيقية، وكما وردت فى إنجيل لوقا، حيث جاءت فى هذا الإنجيل مقترنة بما دخل عليها من مفاهيم وتأويلات إنسانية خاطئة، ويقول الكاتب إن القرآن قد خلط بين مريم أم المسيح ومريم أخت هارون وموسى فى قوله : **﴿يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا﴾** (مريم ٢٨). وفى الحقيقة الذى خلط بين المريمين هما المنصرون والمستشرقون وليس القرآن أو الرسول ﷺ، إذ أن جميع الأوصاف التى وردت فى سورة مريم، بشأن مريم وكذلك فى السور الأخرى، لا تعنى إلا مريم أم المسيح عليها السلام ولا تنطبق إلا عليها. وأما إطلاق عبارة «**أخت هارون**» فقد جاء حكاية عن قومها الذين قارنوا بينها فى الصلاح وبين مريم أخت موسى وهارون. ولو أراد القرآن أن يرد نسب مريم أم المسيح إلى هذين الرجلين لقال «يا أخت هارون وموسى» ولكنه قال يا أخت هارون فقط على سبيل التعظيم، وقد كان اليهود أميل إلى هارون من موسى، وفى ذرية هارون بقيت الكهانة تتوارث، لا تتعداهم إلى غيرهم من بنى إسرائيل، وقد أجمع مفسرو القرآن الكريم على أن مريم أم المسيح هى غير مريم أخت هارون، بل لقد أورد مسلم فى صحيحه حديثا عن المغيرة بن شعبة عن النبى ﷺ أنه كان من عادة اليهود أن يسموا الصالحين منهم بأسماء أنبيائهم[١].

---

(١) ابن كثير مختصر تفسير ج٢ ص ٤٤٩، ٤٥٠.

يمضى الكاتب ليستعرض بعض ما فى القرآن حول المسيح ودعوته مشيراً إلى ما جاء فى سورة مريم، ولكنه يقول إن صورة الميلاد العذرى فى القرآن معتمة وبعيدة عن ضوء المحور، هذا على الرغم من أن القصة ترجع فى أصلها إلى مصادر مسيحية. ثم يشير بعد ذلك إلى كلام المسيح فى المهد ومعجزات أخرى له عليه السلام. قائلاً إنها مقتبسة من أناجيل وحكايات نصرانية خارجة عن نطاق المعتقدات التى تسلم بها الكنيسة. وينبغى ألا يفوتنا أن ننبه على نقطة مهمة وهى أن القرآن وإن كان قد أورد بعض معجزات المسيح كما جاءت فى الأناجيل القانونية بصورة عامة، فإن القرآن فى نظر ماريسون قد جرد شخص المسيح من مفهومه الحقيقى تماماً، فالقرآن على سبيل المثال قد سكت عن أعماله التى قام بها ليفدى البشرية ويخلصها، وعن إظهاره لطبيعة الله كأب محب للإنسانية.

إن القرآن ينكر الصلب ويقول بصلب شخص آخر بدلاً من المسيح كما ينكر بنوة المسيح لله. وهكذا يمضى الكاتب فى اتجاه هذا الخط اللاهوتى البحت ليقارن بين القرآن والأناجيل بالطبع لصالح الأخير والتنقيص من الأول. ينتقل المؤلف بعد ذلك إلى رحلة الإسلام عبر الجزيرة العربية وخارج حدودها فيزعم أن الإسلام قد انتشر على حساب الممالك النصرانية، وأنه فرض نفسه بالقوة على نصارى البيئات المجاورة، وعندما تمكن الإسلام واستقر فى بيئته الجديدة خير النصارى بين اعتناق الإسلام، أو قبول دفع الجزية واتخاذ زى معين يخالف بينهم وبين

المسلمين الفاتحين، ووضع الإسلام النصارى كذلك فى مكانة أدنى مما كانت عليه مكانة المسلمين كما ذكره من قبل أيضاً. أضف إلى ذلك أن المسلمين منعوا النصارى من بناء كنائس جديدة، وحرموا عليهم كذلك محاولة تنصير أى فرد من أفراد المسلمين، والنتيجة الحتمية لهذا المسلك فى نظر الكاتب، وفى نظر فريق المنصرين بشكل عام تتجلى فى دخول كثير من النصارى فى الإسلام كرها.

وهذا الكلام لا يعتمد على حقائق تاريخية ثابتة وغير معارضة، فالإسلام لم يكره أحداً على اعتناقه، ولم يصطدم برغبة أهل البلاد المفتوحة فى البقاء على دينهم، ولكنه اصطدم فقط بالقوى الاستعمارية القديمة التى كانت تسيطر على المنطقة؛ ثم إن مبدأ التخيير الذى قرره الإسلام لا يعتبر إكراهاً بل إنه كان اعترافاً مباشراً منه بكرامة الإنسان وإقراراً من جانبه لحقه فى اختيار ما يراه مناسباً. أما الجزية التى ضربت على من فضلوا أن يبقوا على ديانتهم فإنها كانت إجراءً اجتماعيا وتنظيميا مدنيا أكثر منه دينيا؛ والجزية بالنسبة للنصارى هى كالزكاة بالنسبة للمسلمين، بل إن الزكاة تعتبر ركناً من أركان الدين لا يجوز بحال إسقاطها وهى ترتبط بالأخلاق الإسلامية ارتباطاً وثيقاً بخلاف الجزية التى كان من حق الحاكم المسلم أن يسقطها عن أهلها أو يقللها لهم. ثم إن الجزية كانت مشروطة بحصول أهل الذمة على الحماية والرعاية من جهة المسلمين كما ذكرنا، وإنها كانت مقدرة بمقادير تتناسب مع قدرات أهل الكتاب.

أما بالنسبة لعدم السماح للنصارى ببناء كنائس جديدة والتى أشار إليها المؤلف فإن هذا العمل أيضاً كان مرتبطاً بإدارة شئون الدولة وتنظيماتها، فقد دخلت أعداد كثيرة في الإسلام وبالتالى أصبحت الحاجة ملحة إلى بناء دور عبادة من نوع آخر، أعنى مساجد يمكن أن تستوعب أعداد المسلمين الجدد.

الإسلام السياسى :

وهنا ينتقل الكاتب من الحديث عن الإسلام كدين إلى الحديث عن الإسلام كدولة، وسيراً على المنهج الذى التزمه ماريسون ذكر أن الإسلام انتشر فى بلاد الشرق الأوسط وشمال أفريقيا فى القرون القليلة التى تلت وفاة محمد ﷺ، وأصبح الإسلام فى العصور الوسطى من ثم يمثل ضغطاً مستمراً على أوروبا النصرانية، مما اضطر الأوروبيون أن يشنوا الحروب الصليبية ضد المسلمين، ثم جاء دور مكافحة الأوروبيين للأتراك فيما بعد فى مناطق أوروبا الشرقية.

ومع مطلع القرن السادس عشر امتدت القوى الأوروبية إلى ما وراء البحار، ومرة أخرى اصطدمت أوروبا بالإسلام فى مناطق الشرق الأقصى، وهذا الصدام قد بلغ الذروة فى القرن التاسع عشر نتيجة الانتشار السريع للاستعمار The rabid ad vance of colonialism وكنتيجة لهذا الصدام أيضاً ظهر تيار القومية المعادى للاستعمار فى القرن العشرين. نقول ومن هذا التاريخ بدأت المقاومة ضد الاستعمار تأخذ طابعاً قومياً مدنياً، وبدأ أصحاب هذا الاتجاه يتأثرون غالباً بما يجرى فى أوروبا من

أفكار قومية، وأفكار نهضوية ودفاعية تحررية، ولسنا نعنى بذلك أن القوى الوطنية العربية كانت قد تخلت عن الإسلام، أبدا فإن الإسلام لايزال هو الطاقة الكبرى والمصدر الأصيل لصيانة كرامة الأمة والدفاع عن الوطن الإسلامى الكبير.

ويقرر ماريسون أن العلاقة بين المسلمين والنصارى تتسم دائماً بالمرارة. وفى وقتنا الحالى نراها تتأثر وإلى حد كبير بالمواقف المتشددة وبالانفعالات من قبل الطرفين، فالتجاوزات أو الانحيازات التى استمرت طويلاً وعلى مدار تاريخ العلاقة المسيحية الإسلامية. ومثل هذه التأزمات قد قللت بلاشك من فرصة تطوير علاقات طيبة بين الفريقين وثقة وفهم متبادلين بين الشعوب الإسلامية والغربية (p. 51).

يقول ماريسون «إنه فى ظل هذه الظروف كان على المنصرين المحليين أن يبذلوا جهداً خارقاً للمحافظة على كنائسهم، أو على أنفسهم فى البلدان الإسلامية، وذلك لأن المسلمين كانوا ينظرون إلى المنصر الغربى على أنه آلة استعمارية تناصر سياسة دول معادية سياسياً للمسلمين، أضف إلى ذلك أن تخلى أى مسلم عن دينه فى هذه البلاد يعادل التخلى عن الجنسية، أو حق المواطنة؛ وإن من يفعل ذلك يعد خائناً للوطن، والقومية، لأن الدين والجنس والشعب والأمة كلها واحد فى نظر المسلمين» (p. 52). ويضيف المؤلف قائلاً : «إن المسلمين لا يعبدون محمداً كما يعبد النصارى المسيح، ولكنهم مع ذلك يحبونه حباً جما، ويعتبرون الخروج على دينه إثماً عظيما، وخيانة عظمى»، وهذا حق، فإن

المسلمين لا يعبدون إلا الله تعالى، وإنهم مهما اجتهدوا فى حب محمد ﷺ، وأخلصوا فيه فإنهم لن يصلوا به إلى مقام أعلى من مقام الإنسانية الكاملة، لأن الخروج بالإنسان، مهما كانت عظمته، عن حد الإنسانية يعتبر خروجاً به عن حد طبيعته، والخروج بأى آدمى عن الطبيعة الإنسانية يعد مبالغة تجعل صاحبها منكوراً، وهباء منثوراً لأنه من المستحيل أن يصير الإنسان إلى مرتبة الإله، أو أن ينزل الإله الخالق إلى مرتبة الإنسان المخلوق.

وأما قوله بأن المسلمين يعتبرون الدين خروجاً عن الوطن والقومية فحق لأن الإسلام دين ودولة ودعوة شاملة وعامة، وأن الإسلام لا يبيح ترك الدين بعد الدخول فيه والاقتناع به وقد وضع الإسلام منهجاً دينياً ونفسياً لمعالجة الردَّة والتصدى لها فى حالة حدوثها، وقد استفاضت كتب الفقه فى تحديد مفهوم الردَّة وفى تحديد العقوبة المرصودة لها[١].

ويمكن أن نقول إن المسلمين قد يعتبرون الحركة التنصيرية الغربية بالنسبة للمسيحية كالصهيونية بالنسبة لليهودية، تستهدف الدين والوطن جميعاً، وإذا أرادت الدول المسيحية وأراد المنصرون للعالم السلام والوئام، أن يتعاملوا مع المسلمين كما هم، لا كما يرغب المنصرون لهم أن يكونوا، وليكتفوا من المسلمين باعتقاد ما جاء فى القرآن فى تمجيد المسيح وأمه عليهما السلام، ويختصوا هم أنفسهم بالاعتقاد فى إلهية عيسى المسيح، فالمسلمون على الرغم من إنكارهم لأساسيات العقائد النصرانية،

---

(١) انظر ابن حزم المحلى ج١١ ص ١٣٥ وما بعدها، الشوكانى (محمد بن على) نيل الأوطان ج٧ ص ١٩٠ - ٢٠٦.

كرموا النصارى واليهود كأهل كتاب وأهل ديانة تضم كثيراً من المبادىء الخلقية والدينية المشتركة، وحاولوا عبر العصور أن يتعايشوا معهم فى أمان وسلام.

وبينما يعبر المنصر ماريسون عن بالغ حزنه بسبب الفشل اللاهوتى الذى منيت به الحركات التنصيرية فى العالم فإنه يصور ما قامت به الكنيسة من أعمال إنسانية، نرجو أن تكون لوجه الله، كإيواء ورعاية اللاجئين الفلسطينيين وإنشاء المدارس والإرساليات وغيرها لمساعدة المسلمين فى بلادهم. وإنه نظراً لعدم قدرة المنصرين بعباءاتهم المختلفة على اختراق الموانع الإسلامية فإنهم شعروا بضرورة تغيير خططهم ومناهجهم فى العمل بين المسلمين، وهذا فى حد ذاته يؤكد إصرار المنصرين على تنصير العالم الإسلامى كما تنطق به تصريحات بعضهم بين الفينة والفينة وتتجه إليه كتاباتهم على كل المستويات وعلى اختلاف الفرق. ويدعو ماريسون النصارى إلى بذل المزيد من الجهد والاستمرار فى محاولة تنصير المسلمين بدلاً من الشعور بالإحباط والانزلاق إلى هوة اليأس والجمود.

لم يفت الكاتب أن يتوقف عند التأثير الشيوعى أو الاشتراكى على بعض بلدان المنطقة العربية والإسلامية وتبنى بعض هذه الدول للنظام اليسارى، ودورانها فى فلك الاتحاد السوفييتى السابق، ولكن ماريسون يفسر هذه الظاهرة تفسيراً خاصاً يتسق مع منيته التنصيرية، يقول : «إن المسلمين قد اكتشفوا أن الإسلام لا يستطيع حل مشكلاتهم، وإدارة شئونهم فتبنوا نظام

الحكم الشيوعى، ولو أنصفوا وصدقوا مع أنفسهم لقبلوا الدخول فى دين المسيح الذى جاءنا بالحقيقة كاملة، وأعطانا أكثر مما أعطاهم الإسلام، أو ما يمكن أن تعطيهم الماركسية أو الاشتراكية».

ولسنا ندرى ماذا أعطى المسيح للمسيحيين وأى شىء يا ترى قد تركه لهم المسيح بشأن علوم السياسة والاقتصاد والاجتماع وإدارة شئون الحكم، أو فى تنظيم العلاقات الدولية وغيرها مما تتطلبه الحياة المدنية. وها هى الأناجيل وكتب العهد الجديد فى أيديهم، وأمام أعينهم لا تحتوى على شىء من هذا البتة، إنها مليئة فقط بالمواعظ والأمثال، وبالحديث عن المعجزات وبالحض على نبذ العنف والكراهية، بل وعلى النصح باعتزال الحياة، هذا ولم تصل أوروبا إلى ما هى عليه الآن من حضارة ومن تفوق عسكرى وتكنولوجى إلا بعد أن فصلت الدين عن الدولة، وهمشت دور رجال الدين فى المجتمع المسيحى.

ولسنا نعنى بكلامنا هذا أن نقلل من شأن المسيح عليه السلام كلا بل إننا نرفض فقط أن يحمل على المسيح ما ليس له، أو أن تضاف إليه أدوار دنيوية ليست له كما أضيفت إليه أدوار لاهوتية لم يأت بها، ولو عاود ماريسون فكرته وأمعن فيها النظر لما سهل عليه الجهر بها هكذا، فإن الشيوعية كانت قد انتصرت أول ما انتصرت فى روسيا النصرانية الأرثوذوكسية، ثم انطلقت منها لتشمل بلاداً مسيحية كثيرة، وذلك قبل أن يبدو لها ناجز أو يستهل لها صارخ فى بلاد المسلمين، بل على العكس فإن

المسلمين هم الذين قاوموا الدكتاتورية الشيوعية وصمدوا أمام هجماتها الوحشية الكاسرة داخل روسيا وخارجها، وكان عدد الضحايا المسلمين فى المعارك ضد الشيوعية يفوق مرات ومرات عدد ضحايا النصرانية فى هذه المعارك، يضاف إلى هذا أن الشيوعية لم تضرب إلا بتحالف المسلمين مع الغرب. ثم إن الشيوعية لم تكن خطأً بديلاً عن الإسلام، ولن تكون أبداً بل ولن يصلح لحكم المسلمين أى نظرية أو أى نظام آخر، فالإسلام دين حى ومتفاعل ولديه قدرة خارقة فى التعامل مع الأنظمة المختلفة.

ويتساءل ماريسون فى إصرار عنيد كيف نتغلب إذن على الصعاب ونحقق الأهداف المنشودة؟ إنه سوف يكون من قبيل الجراءة والتسليم المخل فى الوقت نفسه من جانبنا أن نقترح دواء واحداً لعلاج كل الأمراض Panaceas ليستعمله هؤلاء العاملون فى حقل التنصير؛ هؤلاء الذين ضحوا بكل حيواتهم وقدموا كل سبل الإبداع، والإخلاص والتجرد، والولاء المقترن بالتضحيات لعيسى المصلوب، فى محاولة منهم فى أن يصلوا إلى قلوب المسلمين، وهناك قول ينبغى أن نكرره دائماً، وهو أن المسيح يتطلع إلى الجميع "Jesus yearns for all" . ولكن دعوته للأسف تعتمد على رجال غير معصومين. ويستطرد ماريسون قائلاً : إننا لا يمكن أن نهدى المسلمين ونحن قابعون فى بيوتنا أو كنائسنا أو مدارسنا، ماذا ونحن أنفسنا يتضاءل حماسنا، وتديننا وإخلاصنا؟، فكيف نأمل مع هذا فى هداية المسلمين، ثم يتساءل بعد هذا كله، موجهاً خطابه إلى المنصرين، من هم هؤلاء

الذين يهتمون فى الكنيسة بشأن المسلمين؟ من منا يصلى من أجل خلاصهم؟

ويتساءل الكاتب مرة أخرى هل ستكون النتيجة هى إخفاقنا فى تحويل العالم إلى النصرانية أم أننا نحن أنفسنا سنكون معرضين للتحول عنها واعتناق دين آخر؛ وبعبارته هو if we fail to convert the world is it becouse we overselves have still to be converted? ولا يفتأ ماريسون فى هذا الكتيب أن يقدم نصائحه للعاملين فى حقل التنصير بين المسلمين، يقول : «إن الحماسة وحدها، ودون معرفة لا تقود إلا إلى اليأس والجمود، نحن فى حاجة إلى فهم الخلفية السياسية والثقافية وطريقة تفكير المسلمين كذلك». ثم يستطرد قائلاً : «وإنه على الرغم من إيماننا بوجود الاختلافات الأصولية بين النصرانية والإسلامية فإننا ينبغى أن نبحث عن الموضوعات المشتركة بيننا فإنها ستكون بمثابة الجسر الموصل إلى أهدافنا». (p. 56).

بهذا نكون قد قدمنا عرضاً كافياً وتعليقاً وافياً على آراء المنصر ماريسون، وبالطبع فإنه مما يلاحظ أن ما قرأناه فى كلام ماريسون يتفق بشكل عام مع ما قد نقرؤه فى أى إصدارات تنصيرية أو استشراقية أخرى من حيث الآراء ومن حيث الخطط والأهداف معاً، هذا مع ضرورة الأخذ فى الاعتبار أن لكل كاتب ما يتميز به من حيث العرض والأسلوب ومن حيث ما قد يصدر عنه من فكرة جديدة أو اقتراح يكون غير مسبوق إليه.

وإذا أردنا أن نبرز أهم نقاط ماريسون فى نظرته إلى الإسلام والتى حددها هو بنفسه كنظرة نصرانية عامة نقول إن ماريسون

ومعه بالطبع جماعة المنصرين يعتبر أن الإسلام مقدمة أو عامل مساعد على التنصير وهو يعنى بالقطع أن الإسلام يعتبر اتجاهاً داخل النصرانية، وليس ديناً مستقلاً بذاته، وأن ما يحتويه القرآن كان أبلغ تعبير عن مبادئ كنيسة محمد كما يسميها. هذا أولاً، وأما ثانياً : فإن ماريسون يرى أن هناك نقاط اتفاق بين الإسلام والمسيحية يمكن أن تخدم الأهداف التنصيرية فى إقناع المسلمين بإنجيل المسيح كما يزعم، وهذا يستدعى منا أن نلقى نظرة سريعة على اتجاهات المنصرين أو اختلاف وجهات نظرهم داخل الحزام التنصيرى.

يوجد من بين المنصرين من يتفق مع ماريسون فى إمكان اتخاذ الإسلام كممهد لنشر تعاليم الإنجيل وهم من أجل تأكيد هذا المعنى يبحثون عن الموضوعات المشتركة بين الإسلام والمسيحية بل ربما شجعوا الدخول فى حوار مستمر مع المسلمين لأجل تحقيق هذا الغرض، أعنى خدمة الأهداف التنصيرية.

هذا بينما يعلن فريق آخر من المنصرين أن الإسلام يعتبر سداً منيعاً ضد المعرفة الحقة بالله (يعنى عن طريق النصرانية) وبالتالى فلا يرى فائدة من الحوار مع المسلمين. وهناك فريق ثالث منهم يتمثل شغله الدائم فى إبراز الاختلافات بين الديانتين، ومن القائلين بوجهة النظر الأولى تشابمان Chapman إذ يشير هذا المنصر إلى بعض المواضع فى الكتاب المقدس، والتى يعتبرها مؤكدة لوجهة نظره، والفقرة التى أشار إليها كما هى فى أعمال الرسل (لوقا ١٠ : ١-٤).

حيث جاء فيها أن الله قبل صلاة إنسان لم يكن قد تنصر بعد وهو (كرنيليوس)، كما أنه قبل عبادة جماعة من أهل أثينا اعتبرهم بولس متدينون على الرغم من أنهم كانوا يعبدون إلهاً مجهولاً وجاء فى أعمال الرسل أيضاً «فوقف بولس وقال. أيها الرجال الأثينيون أراكم من كل وجه كأنكم متدينون كثيراً لأننى بينما كنت أجتاز وأنظر إلى معبوداتكم وجدت أيضاً مذبحاً مكتوباً عليه. لإله مجهول، فالذى تتقونه وأنتم تجهلونه هذا أنا أنادى لكم به ...» (١٧ : ٢٢-٢٣).

وبناء على هذين الشاهدين يكون فحوى كلام تشابمان أن المسلمين لايزالون من أهل الفترة، أو وهم يعبدون إلهاً يجهلونه، وهم لايزالون فى حاجة إلى من يعرفهم به. وقد ضم توما الأكوينى من قبله المسلمين إلى قائمة المستهدفين بالتنصير وهم اليهود والمسلمون، والوثنيون، والهراطقة، يعنى المنشقين عن الكنيسة بسبب اختلافات عقائدية. ومن أهم كتابات توما الأكوينى فى هذا الصدد هو كتابه «إخطار إلى الوثنيين»، الذى كان له تأثير كبير فى الدفع التنصيرى[(١)].

وبالنسبة لخلاص المسلمين من الخطيئة الأصلية أو من الدينونة فإنه يشير إلى نوعين من الوحى، وحى عام أو طبيعى، ووحى خاص، وهو وحى أنبياء اليهود والنصارى، وفى ضوء إمكان القول بأن محمداً كان باحثاً مخلصاً عن الإله فإن الوحى الذى تلقاه لم يختلف من حيث المبدأ مع ذلك الوحى الذى تلقاه

(١) انظر زينب عبدالعزيز تنصير العالم. مصر ١٤١٥ - ١٩٩٥. ص ٣٥-٣٦.

رجل مثل كريليوس المذكور آنفا، في شاهد أعمال الرسل، وذلك قبل دخوله في المسيحية.

وأكثر من هذا فإن الكاتب يرى أن الله كانت له معاملات خاصة ومباشرة مع محمد[1] ويعتقد براون أن الله كان موجوداً قبل أن تصل المسيحية إلى مسرح الدعوة، وأن الله يرعى المسلمين بدرجة ليست أقل من رعايته للمسيحيين، وهو يقترح أن الله ربما استعمل الإسلام ليؤسس من خلاله في وعي الناس الاعتراف بوجوده سبحانه وتعالى[2].

ويرى فريق آخر من المنصرين أن في الإسلام قوة كامنة قادرة على نقل المعلومات الناقصة وغير الصحيحة بالنسبة للوعي بالنفس والمعرفة بالله، إلى الناس. ويرى عدد قليل من العاملين في حقل التنصير أن الإسلام ضد المسيحية على طول الخط ويرون في الوقت نفسه أن البحث عن موضوعات أو مبادئ مشتركة بين الديانتين يشكل عقبة ضد نشر المسيحية.

وعلى سبيل المثال فإن المستشرق وليم مور William Muir قد جاهر بالشكوى من الإسلام لأنه في نظره يحتوي على قدر عظيم جداً من الحقيقة، وهذا في حد ذاته بصرف الأنظار عن طلب المزيد، أي من الحق، يعني بصريح العبارة أن الإسلام يحول أنظار الناس عن التفكير في المسيحية ويباعد بينهم وبينها. وهذا الكلام هو صنو الفكرة التي روج لها اليوم في أوروبا وأمريكا والتي تصور الإسلام على أنه هو الخطر الذي يتهدد الغرب.

(1) See chapman going soft on Islam, p. 18 K.zebiri, p. 102.
(2) p. 94.

ومنصـر مـعـروف مـثل سـام شـكلورف sam schlorff والذى كان يعمل فى جنوب إفريقيا يرى أن الإسلام إنما يقدم معلومات طبيعية أو عامة، ترتبط بشخص صاحبه عن الله والتى كان من الممكن أن تحصل من خلال الوحى العام الذى أشرنا إليه من قبل، والذى لا يتسق بالطبع مع مفهوم الوحى فى الإسلام. وأنه بالتالى لا معنى للبحث عن مبادىء مشتركة بين النصرانية والإسلام، مادامت هذه المبادىء المشتركة لا تتعدى المشابهات الصناعية أو الظاهرية. وبينما نحن نلاحظ اعتماداً على القواعد الأصولية، أن المعتقدات والمفاهيم الإسلامية تسير على النقيض من المعتقدات والمفاهيم المسيحية، فإنه من غير المفيد، من وجهة نظر الكاتب الغربى، أن نركز على هذه المفاهيم التى تبدو متشابهة. ومثل هذا الكلام يؤدى بالطبع إلى إغلاق باب الحوار والاجتهاد فى التوفيق بين أتباع الديانتين. إن تسليم شكلورف بوجود التناقض أو التضاد بين المسيحية والإسلام يعنى أنه مؤمن أن «النصرانية نصرانية، والإسلام إسلام ولن يلتقيا» وذلك قياساً على مقولة «الشرق شرق، والغرب غرب ولن يلتقيا» وقد يبدو أن هذا الكاتب متأثر بنظرية الفيلسوف الألمانى هيجل التى تقول «بحتمية الصراع بين الشىء ونقيضه».

وكلام شكلورف لا يمثل وجهة نظر شخصية، يمكن تجاوزها أو تبريرها بل إنه يمثل تياراً عاماً للشعوب المسيحية، قد يعبر عنه بطرق وأساليب متنوعة، ومتجاوبة مع الأحداث والظروف، ومع نوع العلاقة بين الشعوب الإسلامية والشعوب النصرانية،

وقد يكون مثل هذا الموقف المتشدد هو السبب من وراء تأخر ظهور الحوار بين المسلمين والنصارى، وعدم الشعور بالحاجة إليه، والاقتصار بدلاً من ذلك، على بعض الكتابات والمنشورات التى تطعن فى الإسلام[1]. من جانب المستشرقين والمنصرين، وعلى الرد عليها من جانب المسلمين. أو على عقد بعض المناظرات التى اتسمت بالحدة والجفاف الروحى والأدبى أحياناً كما كان يحدث فى بعض الأوقات بين علماء المسلمين والمنصرين المواكبين للاستعمار البريطانى فى شبه القارة الهندية وفى مصر.

ومن المفيد فى هذه القرينة أن نذكر أن أوروبا لم تفتح للحوار مع المسلمين ملفاً إلا قريباً جداً ولعل هذا قد جاء نتيجة لتزايد عدد المسلمين فى أوروبا بشكل ظاهر ودخول أعداد كبيرة من الأوروبيين فى الإسلام، أو كاستجابة للدعوة إلى ضرورة تغيير منهج التنصير وبخاصة بين المسلمين. وكان الفاتيكان، رأس الكنيسة الكاثوليكية، فى العالم، هو الذى فتح الباب للحوار مع المسلمين عن طريق دعوة بعض العلماء والمفكرين المسلمين لزيارة الفاتيكان والتحدث مع رجال الدين المسيحى حول الموضوعات ذات الاهتمام المشترك من وجهة النظر الفاتيكانية.

وقد اتسم الجانب الإسلامى بالتحفظ الشديد وعلى الرغم من إيمانه بشرعية وضرورة الحوار، ومدى ما يمكن أن يحدثه من تغيير، وبخاصة فى العصر الحاضر وفى ظل الظروف الحالية، والبالغة التعقيد، والتى يعانى منها العالم كله والمسلمون جزء كبير وفاعل منه.

---

(1) Sam scholorff, Discipleslip in Islamic society p. 39. Also zeberi. p. 206.

بدأ الحوار فى الغرب فى الفاتيكان ثم اتسع جغرافياً ليشمل مساحات واسعة فى العالم وظل ينتقل عبر القارات وينعقد فى قاعات العالم المختلفة على مدى الربع قرن الماضى ولايزال، إلا أن نتائج هذا الحوار ليست على المستوى المطلوب بعد، كما سنبينه فى الباب الخاص به من هذا الكتاب.

الإسلام والمسيحية وعلم الحياة والتوحد

لمؤلفه الأيرلندى ج.ك. برنس

Islam, Christionity, Life Science and Unity

J.K. Burns

ونعرض هنا لكتابين ألفهما البروفسور الأيرلندى ج.ك. برنس: الكتاب الأول بعنوان «علم الحياة والأديان» والكتاب الثانى بعنوان «الإسلام والمسيحية وعلم الحياة والتوحد» وللمؤلف تاريخ علمى، وخبرة فى مجال الأديان اكتسبها عن طريق الاحتكاك بأهل الأديان الأخرى لاسيما العرب والمسلمين.

من المقدمة يظهر الكاتب تحيزه الكامل للنصرانية على حساب الإسلام، فهو يصور على سبيل المثال النصرانية بأنها ديانة المحبة والرحمة، أما الإسلام فهو فى رأيه دين العنف وكراهية الإنسانية وسوف نتوسع فى الرد عليه حول هذه النقطة فى قرينة كتابه الآخر.

يحاول الكاتب دائما تطويع البحوث العلمية لتأييد العقائد النصرانية فهو يقرر فى المقدمة على سبيل المثال أن العلم قد أثبت أن المرأة تعانى من آلام نفسية وضغوط أثناء الحمل والولادة، ويربط الكاتب بين هذه الحقيقة وما جاء فى سفر التكوين (أول أسفار العهد القديم) «وقال: (أى الله) للمرأة تكثيرا أكثر أتعاب حبلك. بالوجع تلدين أولادا» (٣ : ١٦).

ويبنى برنس على ذلك صحة العقيدة المسيحية فى الخطيئة الأصلية، أى خطيئة آدم عندما أكل من الشجرة، تلك الخطيئة التى توارثها أبناؤه من بعده إلى أن جاء المسيح فكفر بدمه عنها. يقول برنس إن العلم الحديث قد أكد صحة ما جاء فى العهد القديم بشأن المتاعب التى تعانيها المرأة أثناء الحمل والولادة؛ ومادام العلم قد أثبت صحة قول التوراة فإنه يؤيد بالتالى الخطيئة الأصلية وسقوط الإنسان، وما دام الكاتب قد رأى أن العلم يؤيد وجود أوجاع ومتاعب تعانى المرأة منها أثناء الحمل والولادة فإن عقيدة الفداء والكفارة والصلب بالتالى ثابتة علميا بالبرهان. وهذا تحامل كبير على الله والعقل وفى الوقت نفسه تحايل على النص، ووهم يرتدى زى العلم. والواقع أن عقيدة الصلب والفداء والكفارة والتثليث خارجة عن نطاق البرهان أصلا باعتراف النصارى أنفسهم.

نتفق مع الكاتب فيما ذكره فى الباب الأول من كتابه محل هذه الدراسة عن أهمية العلم والتقدم العلمى وعدم تعارض الدين والعلم، فهذا أمر يقره الإسلام ويدعو إليه بشرط أن يكون فى إطار القيم الإلهية الراسخة، وألا يتعارض مع الرسالة التى حددها الله للإنسان على الأرض، ولكننا نختلف معه تماما فى استبعاد الإسلام من مجال الاهتمام بعلاج الأمراض النفسية التى يتعرض لها الإنسان ويعانى منها؛ وهذا الزعم راجع إلى جهل الكاتب بالمصادر الإسلامية فالقرآن كله إنما جاء لإصلاح النفس البشرية وعلاج أمراضها المختلفة، بل إن القرآن نفسه يسمى روحا وشفاءً وهدى ونورا.

والقرآن جاء أيضا بما يصلح الفرد والجماعة والمجتمع والإنسانية كلها فى جوانب الحياة المختلفة.

يقول تعالى: **﴿ويشف صدور قوم مؤمنين﴾ (التوبة ١٤)، ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾** (الشعراء ٨٠)، **﴿قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور﴾ (يونس ٥٧)، ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾ (الإسراء ٨٢)، ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء﴾ (فصلت ٤٤)**، والقرآن جاء باليسر لا بالشفاء **﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى﴾ (طه ١ - ٣)**، والإعراض عن القرآن ضئيل **﴿ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى﴾ (طه ١٢٤)، ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ (الرعد ٢٨)**.

إننا مع الكاتب فى أن التقدم فى البحوث الطبية والعلوم الأخرى المهتمة بالإنسان قد أثبتت اتحاد العلم والدين، فهما معا يدوران حول الخلق والحياة الإنسانية، والمعاناة الإنسانية، على الأرض، ومحاولة الوقاية من كل ما يضر بالإنسان، ونتفق معه كذلك فى أن البحوث الطبية والاكتشافات العلمية قد عمقت معرفتنا بالله وبأنفسنا وقدمت لنا كذلك خدمات كثيرة وجليلة لا تنكر.

ولكننا نختلف معه بصورة قاطعة فى قوله إن الإنسان قد صار شريكا لله فى العلم والقوة، وفى زعمه بأن الله قد أوفد

معرفته إلى الإنسان، أو بعبارة أخرى أن الله قد تخلى عن العلم والمعرفة للإنسان. وهذا القول فيه غرور واستكبار لايقره الإسلام، إن العلم الحق يقود إلى العبودية الحقة لله، لا إلى إثبات الشريك له، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، سَواءٌ كان هذا الشريك إنسانا أو حيوانا، أو ظاهرة طبيعية، أو حجرا أو شجرا أو نظاما أو نظرية، آخذين بعين الاعتبار أن علمنا على الرغم من التقدم العلمى وتنوع مجالاته لايزال قليلاً ونِسْبِيًا ومحوطا بكثير من المشكلات والاحتمالات كما يعرف الكاتب بلاشك.

ويحاول برنس وعلى امتداد هذا الخط أن يثبت صحة نظرية التطور التى نادى بها دارون ويقول إن هذه النظرية صحيحة بنسبة ٩٩٪. ولاندرى بأى مقياس قاس صحة النظرية، وإنه لمن الخطأ أن يجعل الكاتب دليل السببية (أى أن لكل موجود موجد ولكل سبب مسبب) احتمالى أيضا وبالتالى فهو يريد أن يوصلنا إلى عالم لايقينى ولادينى.

وإن كان برنس قد جعل دليل السببية دليلا احتماليا فإن الفيلسوف الإنجليزى براتوند راسل قد استبعد هذا الدليل أصلا، وشكك فى صلاحيته بالكلية كأحد الأدلة على وجود الله تعالى.

يقول فى محاضرة له وهى أول محاضرة يتضمنها كتابه (لماذا أنا لست مسيحيا).

«إن الحاجة البسيطة والقديمة للتدليل على وجود الله هى تلك التى تقول: إنه لابد من وجود سبب لكل شىء، وهذه محاجة

تنتهى بنا فى آخر المطاف إلى التسليم بوجود السبب الأول، أى الله ويقول راسل إنه كان قد تخلى عن هذه المحاجة بعد أن قرأ سيرة جون استيوارت ميل الذى طرح عدة تساؤلات حول صلاحية هذه المحاجة فى التدليل على وجود السبب الأول، وبالتالى فقد استدعى ذلك ولاشك، القول بوجود بداية لهذا العالم، يعنى أنه حدث بعد أن لم يكن؛ هذا فى حين أنه لايوجد ما يدعو إلى الاعتقاد بوجود هذه البداية، ويرجع اعتقادنا فى وجود السبب الأول هذا، إلى افتقارنا إلى الخيال.

ويهمنا بصورة أكبر أن نناقش ما كتبه برنس عن الإسلام وهذا هو موضوع الباب السابع من كتابه وعنوانه (الإسلام والإله الواحد).

من البداية يفتتح الكاتب حديثه عن الإسلام بهذه الجملة (الإسلام من ديانات العهد القديم). وهو يعنى بذلك أن الإسلام ليس دينا أصيلا، بل هو منتحل من كتب اليهود والنصارى ثم يضيف قائلا: «إن القرآن هو كتاب الإسلام المقدس وأنه يتضمن بعض القوانين التى تنظم حياة المسلمين والتى هى فى الأساس قوانين تخص حياة العرب»، وهذا القول فيه خطأ كبير، لأنه يفرغ الإسلام من رسالته العالمية، ويجعله قاصرا على العرب وحدهم، ونتعجب لماذا لا يطبق الكاتب المبدأ نفسه على الديانة النصرانية، ويقول بأنها إنما جاءت ليهود فلسطين، ولخراف بنى إسرائيل الضالة كما أعلن المسيح نفسه فى الأناجيل.(؟)

إن الإسلام ديانة عالمية من البداية إلى النهاية، وآيات القرآن الكريم وأحاديث النبى ﷺ وتاريخ الدعوة الإسلامية كلها شواهد على صحة دعوى عالمية الإسلام وشموليته وعجيب أن يعرِّف برنس المسلم بأنه : «الشخص الذى يتبع الله»، ثم يفرع على هذا التعريف غير الدقيق أن اتباع الله يتضمن بالتالى طاعة المسلم المطلقة لله، وكمال المسلم فى نفسه. وهذا فى نظر الكاتب يتعارض مع تعاليم الديانات الأخرى وبالأخص النصرانية التى تقول بأن الإنسان ولد فى الخطيئة، يعنى بذلك الخطيئة الأصلية، التى ترتبت على عصيان آدم وحواء لأمر الله.

وهذا خطأ بالطبع فى المقدمة والنتيجة مَعاً. فالمسلم لاينبغى أن يعرف بأنه «تابع لله»، وإنما هو «تابع لمحمد رسول الله ﷺ ولدين الله والله عندنا ليس شخصا يتبع، وبهذا المعنى وردت لفظة «اتبع» فى القرآن الكريم **﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله﴾ (آل عمران: ٣١) ﴿فاتبعنى أهدك صراطا سويا﴾ (مريم: ٤٣)** قالها إبراهيم عليه السلام لأبيه، وأما المعنى الحقيقى للفظة مسلم فهو الشخص الخاضع لله المسلم له، هذا من حيث اللغة. أما من حيث المفهوم فإن المسلم هو الشخص الذى يدين بكل شىء جاء به محمد ﷺ عن الله تعالى، قرآنا كان أو سنة صحيحة؛ ويعمل بمقتضاه كما ورد به الشرع.

إننا كمسلمين لا نؤمن بأننا كاملون، وإنما نؤمن إيمانا راسخا بنقاء فطرة كل مولود كما فى قوله ﷺ : «كل مولود يولد على الفطرة» أيا كان أبواه يهودا كانوا أو نصارى أو مجوسا أو مسلمين أو حتى وثنيين. إن المسلمين يعتقدون بأن آدم قد

عصى أمر الله بعلم الله، وإرادة الله عندما أكل من الشجرة التى حرمها الله عليه وعلى زوجه حواء فى الجنة، ولكن آدم لم يفعل ذلك قاصدا إلى عصيان الله تعالى متحديا إياه كما فعل إبليس عندما امتنع عن السجود لآدم، بل فعلها ناسيا، سهوا دون قصد كما فى قوله تعالى عنه :

﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما﴾ (طه : ١١٥).

ثم تاب الله عليه بعد ذلك واجتباه، كما فى قوله: **﴿ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾ (طه : ١٢٢)**. وإذن فما يسمونه خطيئة أصلية تبعتها توبة أصلية من آدم، ومغفرة أصلية من الله، ولكن النصارى ركزوا على المعصية وتوقفوا عندها دون مبرر عقلى أو نقلى.

وليس الأمر كما يدعى النصارى بأن خطيئة آدم، كما يسمونها، أو عصيان آدم كما يسميه القرآن، استمر يتوارث بين بنيه وبناته، إلى أن جاء الإله المتجسد يعنى المسيح عليه السلام وفدى الناس منها بدمه المقدس على الصليب بزعمهم. إن الخطيئة أو العصيان لايورثان فى الإسلام، وكذلك الطاعة والعمل الصالح لا يورثان، بل إن هذه وتلك تحصل بالعمل والكسب من قبل الشخص نفسه، قال تعالى: **﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ (البقرة : ٢٨٦) ﴿لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم﴾ (النور : ١١).**

وهنا نقطة مهمة لاينبغى إغفالها وهى أن آدم إنما خلقه الله من البداية لعمارة الأرض سواء أخطأ أو لم يخطىء، هذا هو الظاهر من عبارات القرآن، (إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون). وهذا أيضا هو ما يفهم من عبارات العهد القديم بصورة عامة. أضف إلى ذلك أن الكاتب يريد أن يقول إن المسلمين يعتقدون فى أنفسهم الكمال وبالتالى فهم لايسعون إلى ترقية أنفسهم، أو إلى المساهمة فى إصلاحها، وإصلاح العالم عن طريق العلوم والبحوث المختلفة، وهذا من باب المكر الفكرى غير السائغ من قبل الكاتب.

تكلم برنس بعد ذلك بصراحة، عن مسألة الجبر والاختيار، والقضاء والقدر مصورًا المسلمين على أنهم تسليميين وكما يلاحظ القارئ أن برنس يقصد بكلامه هذا تشويه صورة الإسلام، والحط من شأن المسلمين عن طريق وصفهم بالاتكالية والتعالى معا، مع أنهم لم يعتبروا أنفسهم قط كاملين ولم يزعموا كاليهود والنصارى، أنهم أبناء الله وأحباؤه، أو أن من حقهم احتلال العالم كله وتسخير شعوبه لمصالحهم، كما أن المسلمين ليسو اتكاليين ولادينهم يشجعهم على التواكل بل على العمل الجاد والسلوك المستقيم. بعد أن فرض الكاتب على الإسلام عقيدة الكمال الإنسانى يقول: «إن علم الأحياء قد برهن على أن الإنسان، أيا كان، كائن ناقص، مستنتجا من ذلك خطأ الإسلام فى القول بأن المسلم إنسان كامل، وهذا ما لم يقله الإسلام أبدا

كما ذكرنا. إن رسولنا ﷺ يقرر بوضوح: «كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون» (رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم من رواية على بن مسعدة)، ويقول الله تعالى فى القرآن: **﴿ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها﴾ (الشمس ٧ ـ ١٠).**

وإذا كان المسلمون يعتقدون أنهم متصفون بالكمال كما يزعم الكاتب، فلماذا جاءنا القرآن الكريم، وجاءتنا السنة المطهرة بالتكاليف الشرعية وبالأوامر والنواهى الكثيرة؟ ولأى شىء ترى قد أحل الله لنا وحرم علينا؟ وبشرنا وأنذرنا، ووعدنا بالثواب وتوعدنا بالعقاب؟ ولأى شىء تكلم عن الجنة والنار؟ وجاء بالحدود الشرعية للمخالفين. إذا اتضح هذا نقول إن برنس ربما بنى رأيه الخاطئ هذا فى عصمة الإنسان المسلم على فهم خاطئ كذلك لقول تعالى: **﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾ (آل عمران : ١١٠).**

وإذا صح هذا الفرض فإنه يكون قد فات هذا الكاتب فهم ما قيدته الآية لحصول المسلمين على تلك الخيرية يعنى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وفى الأمر بالمعروف استغراق لكل الصالحات والخيرات، كما أن فى النهى عن المنكر استبعاد لكل المفاسد والرذائل بألوانها المختلفة.

القرآن الكريم

عرض الكاتب للقرآن الكريم واستشهد منه بآيات اختارها لنفسه، حول موضوعات معينة، منها: البشارة بمحمد ﷺ التى وردت فى كتب اليهود والنصارى، وجزم دون تردد بأنه لا وجود لمثل هذه البشارة فى هذه الكتب[1]. وعلى الرغم من أنه ليس من الضرورى أن يبشر بالنبى، أى نبى، فإن المسلمين يعتقدون بناء على ما جاء فى القرآن بأن الأنبياء قد بشروا بقدومه ﷺ، ونصوا عليه، وعرفوه أقوامهم، وإن المسلمين لايؤمنون بتوراة ولا بإنجيل ليس فيهما البشارة بنبيهم محمد ﷺ.

أشار الكاتب بعد ذلك إلى الآية السادسة من سورة الصف والتى تتحدث عن هذه البشارة بطريقة مباشرة يقول تعالى: ﴿**ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد**﴾. قائلا: بأنه لا وجود لهذا الاسم «أحمد» فى الأناجيل، وهو يرفض بالتالى ما يراه المسلمون من تطابق بين معنى عبارة البارقليط أو الفارقليط الواردة بإنجيل يوحنا بالذات (١٤: ١٦، ١٥: ٢٦، ١٦: ٧) وبين الاسم أحمد.

ويقول برنس كما يقول النصارى إن البارقليط هو روح القدس والمعزى الذى أرسله المسيح لتقويه النصارى وتعزيتهم. ودون توسع فى هذا الموضوع نقول إن المسيح قد أنبأ أتباعه بأنه سوف يأتى بعده شخص آخر، «نبى مثله»، يخبرهم بما لم يستطع المسيح أن يخبرهم به، وأنه سيبقى معهم أبدا يؤيدهم ويقويهم.

---

(١) أنظر صفحات ١٢٥، ١٢٦.

وهذا من وجهة نظر المسلمين هو محمد ﷺ ، والقرآن الذى سيبقى إلى يوم القيامة، وقد آمنت أمم كثيرة بنبى الإسلام وقد كانوا يهوداً أو نصارى من قبل وذلك تصديقا لبشارة عيسى عليه السلام بمجيئه ﷺ.

يزعم الكاتب أن القرآن إنما جاء نتيجة لتأملات محمد وعزلته فى شكل حلقات متتابعة تحمل ممارساته التأملية، وقد اعتقد المسلمون فيما بعد أن القرآن هو كلام الله، والمسلمون فى نظره ينظرون إلى القرآن بعاطفة ولايقبلون مناقشته بموضوعية أبدا، عكس النصارى الذين حكموا العقل فى نصوص كتبهم ولم ينظروا إليها من الوجهة الشعورية أو من منظور عاطفى(١).

إن القــرآن بلا أدنى شك يمثل الروح والنور بالنسبـة للمسلمين، ويسرى فى قلوبهم سريان النور فى الأحراق، وتخالط بشاشته أفئدتهم، وتستأثر حلاوته وطلاوته بوجداناتهم، وإن له عليهم لتأثيرا كبيرا وسلطانا عظيما، يفوق كل تأثير وسلطان فهو كلام الله الخالص، ونوره المبين وحبله المتين، وهو العصمة من كل زلل والدواء الناجع من جميع الأمراض والعلل.

والقرآن يخاطب الحس، كما يخاطب العقل والنفس، ويؤثر على الوجدان تأثيره على الجنان، وهكذا يكون كلام الله تعالى. وقد اهتبل المسلمون بالقرآن عاطفيا وفكريا ودرسوه من كل جوانبه فلم تزدهم دراسته إلاحبا فيه وتأثرا به، وإيثارا له على غيره من أى كلام.

---

(١) أنظر ص ١٢٩.

يشير الكاتب برنس إلى عملية جمع القرآن فيزعم أنه كتب بعد وفاة محمد ﷺ، وأنه كتب على مواد متفرقة حفظت فى مكان ما، هذا خطأ وتعدٍّ على حق التفكير العلمى فضلا عن التعدى على دين الله وعلى كلام الله، بله على معتقدات المسلمين. فالقرآن كان مجموعا فى حياته - ﷺ - محفوظا فى صدور المسلمين الصغار والكبار والرجال والنساء، والقرآن كتاب حىٌّ يستعمله المسلمون، ليس فى الوثائق والدراسات فقط، وإنما فى الحكم والتشريع، والعبادات والصلوات التى تتكرر كل يوم وليلة، هذا فضلا عن أن قراءة القرآن فى حد ذاتها داخلة فى عموم مجموع العبادات الإسلامية، وكان القرآن محفوظا ومكتوبا فى الرقاع واللخاف والأحجار والعظام والأباطى، وجريد النخل وأوراق البردى، وغير ذلك مما تسنى للنبى ﷺ ولأهل القرآن من مواد آنذاك، لقد كان الكتاب العزيز مجموعا ومرتبا هكذا، ومحفوظا فى حجرة النبى ﷺ ، ثم إنه جمع بعد وفاته ﷺ وفى عهد الخليفة أبى بكر الصديق جمعا آخر، جمعا فى الصحف، وقد حفظ فى مكان معلوم وهو بيت حفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنها، ثم جمع فى عهد الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه جمعا مختلفا لتوحيد القراءة بحسب العرضة الأخيرة للقرآن، وذلك عندما اختلف الناس والصبيان فى الكتاتيب فى قراءته بالقراءات المختلفة التى نزل بها القرآن، بعد اتساع رقعة العالم الإسلامى وبعد أن دخلت الألوف فى دين الله أفواجا.

القرآن والعلم

بعد ذلك يتناول الكاتب موضوع العلاقة بين القرآن والعلم قائلا دون أدنى تردد أو تحفظ بأن القرآن لايطابق معطيات العلم الحديث، وأنه لايثبت كذلك على الفحص العلمى وبالتالى فسوف تستبدل تعاليمه بالقيم العلمية والإنسانية، وأن مصير القرآن هذا لايستوعبه إلا من عندهم ثقافة كافية من المسلمين، يقصد برنس العلمانيين من المسلمين.

ثم يضيف الكاتب قائلا: «إن القبول غير العقلانى للكتاب المقدس لا وجود له عادة فى الغرب وذلك راجع من وجهة نظره إلى نوع الثقافة والنزعة العقلانية المصاحبة له.

إن الفهم قد زاد كثيرا بسبب التقدم العلمى، وإن انتشار المعرفة والحقيقة يمكن أن يسير فى خط مواز للتربية، وإن الاعتقاد الذى لايثبت أمام التقييم النقدى العلمى سوف لايتشبث به إلا الجهال وغير المثقفين من الناس(١).

وجهل أو تجاهل الكاتب أن علماء المسلمين هم قادة الحركة النقدية للكتاب المقدس وذلك قبل النهضة الأوروبية بزمان بعيد، وأن الإسلام إنما هو دين قائم على العلم، بل هو نفسه دعوة علمية تطالب بالتدبر والنظر والحجة والبرهان وتحث دائما على الاجتهاد ورفض التقليد. وبعد هذا الكلام مباشرة يقتبس الكاتب بعض آيات من القرآن الكريم، الآية الأولى من المتشابه، والثانى تدور حول وحدة الوحى، أما الثالثة والرابعة فتختصان بكيفية

---

(١) انظر ص ٢٩، ٣٠.

نزول القرآن. وكذلك بعض الآيات التى تدور حول المسيحية المسيح والرسل عليهم السلام[1]. يحرص الكاتب على أن يظهر القرآن بأنه كتاب متناقض لايجمعه نسق أو نظام واحد.

إن مكمن الخطأ والخطر فى تقويم هذا الكاتب وغيره من الكتاب الغربيين للقرآن أنه تقويم ينطلق من بداية أو مقدمة باطلة، أعنى قولهم أن القرآن كتاب بشرى من تصنيف محمد ﷺ.

ينزلق برنس مرة أخرى إلى مسألة القضاء والقدر[2] محاولا للمرة الثانية أن يثبت بطريقته الخاصة أن القرآن يشجع على التسليم والتواكل والخمول، وأما المسيحية فهى عنده على العكس ديانة العلم والحضارة والعمل المتواصل. إن برنس مغرم بإعلاء شأن المسيحية بغض النظر عن أى اعتبارات أخرى، إنه يربط دائما بينها وبين التقدم العلمى فى الغرب، وإنه لمن المؤسف أن يصدر مثل هذا الحكم عن أستاذ أنفق حياته كلها فى رحاب العلم العملى والتجريبى، وهو نفسه الذى قرر فى مقدمته أن رأى العالم فى العلوم العلمية ليس فيه تحيز أو انفعال كرأى غيره.

إن القرآن يحتوى على مئات الآيات التى تحض على طلب العلم والعمل وعلى الفكر والبحث والتأمل والنظر. وعلى رفعة مكانه العلماء عند الله، كما أن فى القرآن آيات كثيرة تدين أهل الجهل والغافلين عن العلم إلى درجة أن الله عز وجل جعلهم كالأنعام بل أضل. ونتعجب كيف يتجاهل برنس أن أوروبا كانت تعيش فى الظلمات ردحاً طويلاً من الزمن وبين أيديهم هذا

---

(١) انظر ص ١٣٠ ـ ١٣٢.　　(٢) انظر ص ١٣٢، ١٣٣.

الكتاب المقدس، وبجانبه مئات الشروح، نقول: إن أوروبا لم تنهض علميا وتتقدم وتتحضر إلا بعد أن فصلت الدين عن الدولة وهمشت دور النصرانية، بل إن كثيرا من الكنائس قد خضعت بصورة كاملة أو شبه كاملة لنفوذ العلم الحديث وسلطان الأخلاق الجديدة والتى تصطدم بكثير من مبادئها بالمسيحية، وليس يقل أهمية عن ذلك أن أوروبا تقدمت عندما احتكت بالمسلمين وتتلمذت على أيديهم ونقلت علومهم ومعارفهم.

القرآن والعقائد المسيحية

ثم يتناول برنس بعد هذه النقطة أقوال القرآن فى العقائد المسيحية[1] ويقول إن موقف الإسلام من طبيعة المسيح ومن التثليث والصلب يمكن أن يتوافق مع كتب النصارى، هذا إذا أحسن تفسيرها أو تأويلها، فالمسيح على سبيل المثال إذا فسرت بنوته لله على أنها بنوة أو ولادة روحية، وبأن المسيح إنما هو ابن الله الروحى وليس الجسدى، فإنه يمكن إزالة الخلاف بين القرآن والعقيدة النصرانية، وذلك لاعتبار أن المسيح كان كاملا، ولسنا ندرى ماذا يقصد برنس بكمال المسيح، هل كان المسيح كاملا كإنسان أو كاملا كإله؟!! وإذا كان المسيح هو ابن الله الروحى على اعتبار أن روح الله حلت فيه، فإن جميع بنى آدم فيهم أيضا من روح الله تعالى، يقول تعالى: ﴿**فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين**﴾ (**الحجر ٢٩، ص ٧٢**) وهذا عن آدم عليه السلام؛ ثم كيف يفسر الكاتب بنوة المسيح الروحية

(١) انظر ص ١٣٨ ـ ١٤٩.

لله، هل تمت هذه البنوة فى زمان ومكان، وهل يمكن أن يتجسد الله أو ابن الله، ويأتى إلى هذ الكوكب ويخضع لقوانينه وعوارضه المادية الكثيرة والمتنوعة والمؤثرة تأثيرا واضحا فى كل ما اشتمل عليه هذا الكون. والتى لايجهلها الكاتب بحكم مهنته وخبرته العلمية. وبعيدا عن هذا فإننا نتفق مع برنس فى أن المسيح لم يدع أنه الإله الخالق نعم وأنى له ذلك!! ولكننا نخالفه فى فهم الاتحاد بين الإله الأب والمسيح الابن فنفسره نحن باتحاد الإرادة والمحبة وليس باتحاد الجوهر فهو من باب قولنا أنا وصديقى روح واحدة أو شيء واحد فليس معناه أن الصديقين صارا شيئا واحدا بل فقط اتحدت إرادتهما وأهوائهما.

أضف إلى ذلك أن النصارى لايتفقون جميعا على القول بالنبوة الروحية، غير الجسدية بل إن مقالاتهم فى المسيح متضاربة ومتباينة، قبل وبعد مؤتمر نيقية الذى انعقد لحسم المشكلة التى فرقت النصارى بسبب اختلافهم حول تحديد طبيعة المسيح كما وضحناه فى رسالتنا للدكتوراه التى تقدمنا بها لجامعة اكستر بالمملكة المتحدة وعنوانها المسيحية من وجهة نظر الإسلام دراسة نقدية مقارنة.

وهكذا يمضى الكاتب فى تبرير العقائد المسيحية المعقدة التى تتعارض مع العقائد والتعاليم الإسلامية السهلة[١]، هذا بالإضافة إلى أنه لايمكن أن تتفق النصرانية واليهودية والإسلام على عقائد الصلب والتجسد والفداء والكفارة والتثليث وبنوة المسيح لله

---

(١) انظر ص ١٤٩ ـ ١٥٠.

تعالى. وليس معنى هذا أن هذه الأديان لايمكن أبدا أن تلتقى أو تتفق على شىء البته، كلا فإن هناك مبادىء كثيرة تتفق فيها هذه الأديان وتجتمع عليها وهذه المبادىء تكفى، فى نظرنا للتقريب بين أتباع هذه الأديان وتجميعهم على التعاون لخير البشرية وصالح الشعوب.

موقف برنس من ختم النبوة

ينتقل الكاتب بعد ذلك ليشكك فى عقيدة ختم النبوة قائلا: إن القول بختم محمد للنبوات يعنى إغلاق باب المعرفة فى وجه الإنسان، وهذه العقيدة فى حد ذاتها تعنى أن الإنسان قد بلغ حد الكمال، النقطة نفسها التى لمسها برنس من قبل، وينبغى أن نلفت النظر إلى أن الكاتب يتفق هنا مع القاديانيين والبهائيين فى إنكار ختم النبوة. وخطؤه هو ومن لف لفيفه يكمن فى أنه سوى بين النبوة القائمة على الوحى الثابت، والمعرفة الإنسانية المكتسبة ـ بالعقل والبحث والنظر ـ والمتطورة فى الوقت نفسه، هذا من جانب ومن جانب آخر فإنه سوى كذلك بين النبى المعصوم، والعالم أو المصلح غير المعصوم. وينبغى أن يكون معلوماً أن القرآن إذ يقرر ختم النبوة لايعنى إغلاق باب المعرفة والعلم أبدا، بين الله والإنسان بل على العكس فإنه يدعو إليهما فى كل آياته، ويضع الإسلام العلم فى مرتبة فوق مرتبة العبادة، بل إنه يجعل العلم طريقا إلى الإيمان ومسبباً له، وهادياً لخطاه وحافظاً إياه.

ويكفى أن نعرف أن الله تعالى قد جعل معجزة الإسلام معجزة عقلية لا مادية، وذلك لكى تقرأ هذه المعجزة وتتأمل دائما

ولكى يستنبط منها العلماء العالمين وتشع بالنور والهدى وتعم بالخير والرحمة على مدار الزمان وتوالى الأجيال.

ترجمة القرآن

يتكلم الكاتب فى هذا الموضع، وباختصار عن ترجمة القرآن فيقول إن المسلمين يعتقدون خطأ بعدم إمكان ترجمة لغة القرآن، والحقيقة إن مثل هذا الكلام ينطبق على أى لغة كانت وعلى أى كتاب مقدس كان وليس يخص القرآن وحده. ثم يقول: «إن العرب قد أعطوا أهمية خاصة للغة لأن هذا كان متفقا مع أسلوب حياتهم كبدو، وقبائل يعيشون فى أقاليم صحراوية جرداء، ولذلك فقد أعطوا أهمية أكبر للغتهم من تلك التى يعطيها الغرب للغته، وكنتيجة لهذا التصور تكون الترجمة[١] الحرفية للقرآن غير مرضية، لذا ينبغى علينا أن ننقل المعنى فقط من اللغة العربية إلى اللغة الأخرى عند الترجمة». ويستشهد برنس على صعوبة الترجمة الحرفية للقرآن الكريم بكلمة «تثليث» على سبيل المثال، والتى يصعب ترجمتها إلى اللغة العربية، حيث أن كلمة واحدة، يعنى كلمة «تثليث» لايمكن أن تنقل تراثا من المناقشات والمؤتمرات التى تمت عبر القرون، يقصد برنس بذلك أن كلمة التثليث فى اللغة العربية لاتعنى ما تعنيه كلمة Trinity ترينيتى الإنجليزية، لذا يجب، من وجهة نظره ألا ننقد ديانة أخرى مخالفة قبل أن نبين الأشياء التى نختلف فيها مع هذه الديانة، ونضيف إلى ما سبق فى تفنيد كلام برنس أن كلمة ترينيتى (تثليث) فى

(١) انظر ص ١٥٠ ـ ١٥١.

اللغة الإنجليزية لايمكن كذلك أن تنقل بمفردها التراث النصرانى. ولو أنصف الكاتب لذكر أن كلمة ترينيتى لا وجود لها فى الأناجيل، وأنها من إضافات المجامع الكنسية وإدخالاتها. إن إعتزاز العرب بلغتهم أمر لا شك فيه وهذا الاعتزاز ليس منشوءه البداوة كما يزعم المؤلف فليس كل بدو يعتزون بلغتهم وليس أهل الحضارة غير معتزين بلغتهم كذلك، إن الاعتزاز باللغة، وهو كاللغة نفسها سمة إنسانية، واعتزاز العرب بلغتهم راجع إلى سعة مفرداتها وكثرة اشتقاقاتها وتنوع أساليبها وتناغم العبارات مع الصوتيات فيها ولذلك كله استأهلت هذه اللغة أن تحمل معانى ومفاهيم القرآن إلى عموم البشرية وأن تخاطب أهل الألسنة المختلفة فتفهمهم وتأخذ بمجامع قلوبهم.

دعوى تحريف القرآن

ينتقل برنس من موضوع التثليث، الذى حاول أن يستعمل فيه لغة توفيقية مخادعة، إلى القرآن الكريم ليتحدث عن محتوياته. يدعى الكاتب أن القرآن منتحلا من كتب اليهود والنصارى[١] وهو يطعن بلا تردد فى عقيدة المسلمين بخصوص سلامة القرآن من التحريف، بل إنه يعتبر هذه العقيدة مثيرة للعجب، ويقول بأنه فى الأيام الأولى للإسلام (يقصد بعد تمام التنزيل) كانت توجد نسخ كثيرة ومختلفة للقرآن، وإن نقاد الإسلام والمسيحية معا قد أشاروا إلى وجود نسخ من الإنجيل والقرآن قد هجرت ومنعت من القراءة.

(١) انظر ص ١٥١ ـ ١٥٤.

هذه تسوية ظالمة بين القرآن كنص إلهى ثبتت صحته وسلامته من التحريف، وكتب فى حياة صاحب الدعوة وخلفائه المباشرين، وحفظ فى صدور أوائل وأواخر المسلمين؛ وحيط بكل عناية ورعاية منذ أن نزلت أول آية فيه، حتى آخر آياته نزولا، وبين الأناجيل التى كتبها رجال تحوطهم كثير من الجهالة فى أزمنة مختلفة وأماكن مختلفة وبلغات مختلفة، ليس منها بالطبع اللغة التى تكلم بها المسيح عليه السلام، بل إن من كتاب الأناجيل من لم ير المسيح قط، بل إن بعض من شاهد المسيح وسمع منه رفضت الكنيسة إنجيلة مثل برنابا وغيره كثير.

ويزعم الكاتب إضافة إلى ما سبق أن القرآن قد أصابه التغيير والتبديل، وهذا الزعم فوق أنه مصادم لعقيدة المسلمين فى القرآن، فإنه أيضا مصادم للأدلة التاريخية الدامغة التى تثبت خلو القرآن بالمرة من التحريف فالقرآن كما ذكرنا تكفل الله بحفظه ولذلك هيئ الله سبحانه وتعالى له كل أسباب الحفظ، الحفظ فى الصدور، والحفظ فى الصحف والآباطى والبردى، وفى العصر الحديث الحفظ على الأشرطة والأسطوانات وغير ذلك.

موضوعات أخرى

بعد ذلك يعرج برنس على موضوعات أخرى مختلفة يختتم بها حديثه فى هذا الكتاب عن الإسلام منها العبارات التى توهم التجسيد والتشبيه فى القرآن الكريم كعبارات وجه الله، بيت الله، الرحمن على العرش استوى؛ وأيضا موضوعات كالزواج

والطلاق، وسائل تحديد النسل، عصمة مريم من الخطأ، السلوك التناسلى، أو الصحة الإنجابية، الحرية والخطيئة الأصلية[1]. إلخ.

ويختتم برنس حديثه عن الإسلام بالإشارة إلى ظهور مريم العذراء بالزيتون فى القاهرة (فى المدة ما بين ١٩٦٨ ـ ١٩٧٠م)، وهو فى كل هذه الموضوعات يعلى من قيمة النصرانية على حساب الإسلام ويحاول دائما الاحتفاظ بطرف الخيط، الذى يجمع الكتاب كله، فى يده، ليصل من خلاله إلى الزعم بأن الإسلام دين منتحل من اليهودية والنصرانية؛ وهو فى رتبة دنيا بالنسبة للديانة الأخيرة، وأنه دين لا يشجع العلم ولا البحث العلمى ولايثبت على الفحص العلمى النقدى، وأن القرآن ليس معجزا ولا هو خال من التحريف كذلك وأن محمداً ليس بخاتم الأنبياء وأنه لم يبشر به فى الكتب السابقة.

وعلى أى حال فإن الكتاب لايخلو من فائدة وبخاصة فى موضوعاته التى تتحدث عن علم النفس والأمراض النفسية.

---

(١) انظر ص ١٥٦ ـ ١٦٣.

علم الحياة والأديان

لمؤلفه الأيرلندى ج.ك. برنس

Life Science and Religions

J.K. Burns

الإسلام من وجهة نظر برنس

يبدأ برنس كتابه هذا بالإعراب عن ضيقه بالإسلام، فعلى سبيل المثال فى الباب الثانى يقول إن الإسلام هو دين موسى وإبراهيم، والأنبياء الآخرين، وإنه يشترك مع اليهودية والنصرانية فى عقيدة التوحيد وإلى هذا الحد يكون كلامه مقبولا، إلا أنه عاد فأفرغ الإسلام من محتوياته وراغ عليه نقدا وطعنا إذ اعتبره ديانة بدوية ضيقة فى مفاهيمها وفى نظرتها للحياة. وهذا ترديد لكلام الفيلسوف الفرنسى ميسيو رينان الذى كان يزعم أن الإسلام، هو الديانة الطبيعية للصحراء، وأن إصرار محمد عليه، وعلى عقيدة التوحيد إنما كان استجابة للبيئة العربية الجامدة التى كان يعيش فيها[١]. واتفاق برنس ورينان على هذه النقطة إنما جاء بدافع تأثرهما بالمفهوم الأسطورى للديانة، هذا المفهوم الذى دخل على المسيحية فأخضعها تماما وبالقوة الباردة لمفاهيمه وتصوراته. ويكثر المؤلف هنا من إيراد الشواهد القرآنية معتمدا على ترجمات القرآن المختلفة قاصدا من وراء ذلك إلى إثبات خطأ هذه الترجمات وعدم دقتها، وبالتالى تقرير أن

(1) H.A.R. Gibb Islam, (oxford, oxford university press, 1978) P.I.

الإسلام لايعارض العقائد المسيحية، وبالذات عقائد التثليث وبنوة المسيح لله والخطيئة الأصلية، وكأن القرآن فى لغته العربية الأصلية لا يعارض هذه العقائد النصرانية وهذا خطأ منهجى فادح وقع فيه الكاتب فإن القرآن، على عكس الكتاب المقدس، لايعتمد على الترجمات البتة، بل إن المسلمين لايعتبرون الترجمة قرآنا بطريق الحقيقة، بل بطريق المجاز، ثم إن المسلمين لم يقدموا على ترجمة معانى القرآن إلا حديثا جدا كما ذكرناه فى كتابنا القرآن من المنظور الاستشراقى. وكان هذا من أكبر العوامل على انتشار القرآن بلغته الأصلية اللغة العربية وساعد من جانب آخر على تطور اللغة العربية وانتشارها بانتشار القرآن. يتهم الكاتب الإسلام بالغموض وبالتأخر، وعدم القدرة على مواجهة مشكلات الحياة والبيئة والمجتمع، التصور الخاطىء نفسه الذى لفقه فى كتابه السابق.

ومن الأخطاء الفاحشة التى وقع فيها برنس زعمه، مثل سائر المنصرين والمستشرقين بأن القرآن يخلو تماما من آية إشارة إلى المحبة، محبة الله للإنسان، ومحبة الإنسان للإنسان، وأن القرآن على العكس من ذلك يتمسك بالعقيدة الموسوية فى الأخذ بالقصاص، تلك العقيدة التى تقوم على الكراهية والعنف.

ولكى يدعم الكاتب زعمه فى أن تعاليم الإسلام تتسم بالعنف، يقول أنه توجد فى القرآن أكثر من أربعين إشارة إلى الجنة، وأكثر من مائة إشارة إلى النار والدينونة، كما أن هناك ست عشرة إشارة إلى الحرب، وخمس عشرة إشارة إلى الخوف،

وست إشارات فقط إلى السلام؛ ولا يوجد بالقرآن سوى إشارة واحدة إلى المعاناة، التى قصرها القرآن على الأنبياء، بسبب ما تحملوه من أقوامهم من عناء وبلاء. هذا كلام مجحف وحكم متعسف، فإن القرآن يحتوى على أربع وستين إشارة إلى «الحب»، بهذا اللفظ ومشتقاته، ويشتمل على لفظ (المحبة) مرة واحدة، وعلى لفظ (الود) مرة واحدة كذلك، يقول ابن منظور «الود: الحب يكون فى جميع مداخل الخير (لسان العرب ٣/٤٥٣) ويقول ابن الأنبارى: الودود فى أسماء الله، المحب لعباده، ومعناه أيضا أن الله الودود يحب عبادة الصالحين. ويرضى عنهم، ومعنى تودد إليه تحببه (نفس المصدر ٤٥٤) ولفظ (الود) أدل على ثبات الحب وبقائه من لفظى الحب والمحبة.

لقد ذكر القرآن لفظة مودة المشتقة من (ود) مرة واحدة؛ ومن أسماء الله عز وجل (الودود) (الشفوق)؛ (الرحمن) (الرحيم) (الرؤوف) وكل هذه الأسماء فى القرآن إلا الشفوق. والقرآن كله إنما جاء لتأسيس علاقة الحب بين الإنسان وبين الله؛ وتعريف الإنسان بالله تعالى وبحب الله عز وجل له وحرصه عليه؛ فالله هو الخالق الرازق، والهادى إلى سواء السبيل؛ وهو الذى سخر الإنسان لعبادته، وسخر كل شىء لخدمة هذا الإنسان، ولايعنى هذا أن الله يحبنا لمجرد أنه خلقنا، أو أنه يحبنا بسبب الجنس، أو اللون أو الطبقة، وإنما يحبنا الله بسبب التحلى بالفضائل والتقوى والأعمال الصالحة، والتمسك بتعاليم الله، ومع هذا فإن الذى يقف ضد منهج الله، ويعصى الله فإنه تعالى يفتح له باب التوبة والرحمة حبا له وحرصا منه تعالى عليه وشفقة به.

أما عن ذكر السلام فى القرآن: فإن الإشارات إليه أكثر من أن تحصى فى ستة مواضع فقط كما يزعم الكاتب. فالسلام اسم من أسماء الله تعالى؛ وهو اسم للجنة، وبه يحيى المسلمون بعضهم بعضا، ويشار إليه فى القرآن بلفظه هذا «السلام» أو بنظائره فى مواضع كثيرة من الكتاب العزيز.

والسلام يعنى السلام مع الله، ومع النفس، ومع الإنسان، ومع المجتمع، والسلام من مبادىء الإسلام وهو غرض سام من أغراض القرآن الكريم، وينبغى أن ندرك أن إشارات التخويف فى القرآن ترد دائما مصحوبة بالدعوة إلى حسن الرجاء والتحذير من اليأس ومن القنوط، والخوف هو، على أى حال ومهما يكن الأمر، العنصر المعادل فى الموازنة النفسية للإنسان فى التعاليم القرآنية.

وأما عن قول الكاتب الغربى بأن القرآن ليس فيه إلا إشارة واحدة لا غير إلى (المعاناة) فليس صحيحا ولا فصيحا بالمرة إذ أن هناك ألفاظا كثيرة فى القرآن للتعبير عن المعاناة منها نبلو، الخير والشر، والمصيبة، والبلاء، والوهن، والكبد، والكدح، والكد، والشقاء والسعادة والمعيشة الضنك وغيرها من الكلمات التى ترد فى القرآن للتعبير عما يعانيه الإنسان فى هذه الحياة الدنيا وما ينبغى عليه عمله لعلاجها، وهذه الألفاظ لها أيضا ما يقابلها من كلمات السعادة والنعيم والطمأنينة والرضا فى القرآن الكريم يقول تعالى: **﴿وإن تعفوا أقرب للتقوى ولاتنسوا الفضل بينكم﴾ (البقرة : ٢٣٧)**.

﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾ (آل عمران : ١٣٤).

﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾ (الانشقاق : ٦).

﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين أن أشكر لى ولوالديك إلى المصير﴾ (لقمان : ١٤).

﴿لقد خلقنا الإنسان فى كبد﴾ (البلد : ٤).

﴿إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا﴾ (المعارج : ١٩ ـ ٢١).

﴿خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾ (النحل : ٤).

﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا﴾ (الإنسان : ٢).

﴿خلق الإنسان من علق﴾ (العلق : ٢).

وعن تقويم خلق الإنسان وتجميله يقول تعالى :

﴿لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم﴾ (التين : ٤).

وعن الاستعدادات النفسية والمدارك العقلية للإنسان يقول تعالى :

﴿وكان الإنسان عجولا﴾ (الإسراء : ١١).

﴿وكان الإنسان أكثر شىء جدلا﴾ (الكهف : ٥٤).

﴿إن الإنسان لكفور﴾ (الحج : ٦٦).

﴿وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه﴾ (الزمر : ٨).

﴿لايسأم الإنسان من دعاء الخير﴾ (فصلت : ٤٩).

﴿وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور﴾ (الشورى : ٤٨).

﴿إن الإنسان لربه لكنود * وإنه على ذلك لشهيد * وإنه لحب الخير لشديد﴾ (العاديات : ٦ - ٨).

وعن تحمل الإنسان للمسئولية يقول تعالى :

﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقنا منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا﴾ (الأحزاب : ٧٢).

هذه الآيات وغيرها كثير تهتم بالإنسان، بوضعه ورسالته على هذا الكوكب، وبمصيره فيه؛ وهى لم تدع شيئا يهم الإنسان إلا ونبهت عليه إلى درجة يمكن أن نقول معها إن القرآن كله إنما جاء عن طريق الإنسان ـ وهو محمد النبى ﷺ، ـ للإنسان أيا كان جنسه أو لونه أو موقعه أو موضعه فى هذه الحياة.

ثم إن القصاص فى الإسلام، والذى استنكره برنس، يأتى دائما مقترنا بالدعوة إلى العفو والصفح، ومن التشريعات الإسلامية المصاحبة للقصاص قبول الدية، والكفارة التى تكون بحسب طاقة الإنسان وظروفه. بل إن الإسلام يدعو العاقلة (أهل القاتل) أن يتحملوا معه أو عنه الدية. وينبغى أن يكون معلوما

بالإضافة إلى ما سبق أن القصاص قد شرعه الإسلام حفاظا على حياة المجتمع والأفراد لا للقسوة والانتقام والتنكيل، يقول تعالى:

﴿ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون﴾ (البقرة : ١٧٩).

إن الكاتب ينتصر دائما للعقائد المسيحية باسم العلم والبحث العلمى على حساب الإسلام؛ ونراه يسخر العلم والبحوث العلمية فى غير ما موضع لإثبات المسائل اللاهوتية النصرانية الخارجة عن نطاق العلم أساساً وتأكيدها، وعلى أية حال فهذا الكتاب الذى بين أيدينا كالكتاب السابق يعبر عن الفكرة نفسها ويسعى لتقرير نفس الغاية والمقصد.

وأخيرا فإن دعوة الكاتبين بشكل عام تستحث المسلمين على التخلى عن شريعتهم وتبنى المعطيات العلمية والثقافة الغربية وتطالبهم بأن ينضموا إلى النظام العالمى الجديد وأن يأتوا إليه حفاة عراة إذا شاءوا أن يعيشوا هذه الحياة.

وهذا هو ما تتجه إليه محاولات الغربيين وكتاباتهم، نعم إنهم ينادون بوحدة العالم ووحدة العائلة البشرية ولكن تحت حكم الهيمنة الغربية والنظام الغربى.

ولسنا بهذا نحكم على المجتمع الغربى كله بأنه مجتمع ظالم، كلا فإن المجتمعات الإنسانية فيها الخير والشر، وفيها الخيِّر والشرِّير؛ وإن جوانب الخير فى الغرب كثيرة ولكننا نتكلم عن شطط السياسيين ومخططات المحرضين ضد سلام العالم.

الباب السابع
الحوار
الموضوع والمتطلبات والمشكلات

الحوار : معناه ومفهومه

الحوار والتحاور: التجاوب، تقول كلمته فما أحار لى جوابا وما رجع إلى حويرا ولا حريرة، ولا محورة ولا حوارا أى ما رد جوابا، واستحاره أى استنطقه.

وقد ورد لفظ الحوار والمحاورة فى القرآن الكريم فى موضعين فى سورة الكهف، وفى موضع واحد فى مفتتح سورة المجادلة يقول تعالى بعد ذكر المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعاف والمساكين من المسلمين ﴿**وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا * ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا * وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا * قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا * لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحدا**﴾ (**الكهف ٣٤ ـ ٣٨**).

وفى سورة المجادلة، والتى يحمل اسمها أيضا إشارة إلى الحوار، يقول تعالى: «**قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير**» المجادلة: ١.

موضوع الحوار فى هذه المسألة قضية اجتماعية تتعلق ببناء الأسرة واستقرارها، وحقوق المرأة وواجبات الزوج تجاهها. وبناء على هذا يمكن أن ينعقد الحوار حول موضوعات عقائدية وموضوعات اجتماعية وبالتالى فلا مندوحة من الحوار مع غير المسلمين حول مثل هذه الموضوعات بل والحوار حولها بين المسلمين أنفسهم بغرض البحث حول عما يصلح الأسرة ويحصن المجتمع كل المجتمع من جميع الأمراض.

وقد جاء الكلام عن الحوار فى القرآن الكريم معبرا عنه بألفاظ مثل حاجَّ أو جادل.

على سبيل المثال يقول تعالى: **﴿فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ (سورة آل عمران ٦١)**. والحق الذى جاء به محمد من الله هو القول الفصل بشأن تحديد طبيعة السيد المسيح عليه السلام، فقد ذكر الله تعالى فى الآية التى قبلها أن مثل عيسى فى خلقه المعجز هو كمثل آدم فى خلقه، وعليه فلا يجوز ترتيب مسائل لاهوتيه وعقائدية على خلق عيسى بدون أب، بل ينبغى أن يتفطن إلى الإلزام القرآنى للنصارى، وهو أنه إذا جازت البنوة لله فى حق عيسى لكونه مخلوقاً من غير أب، فجواز ذلك فى حق آدم أولى وألزم، وذلك لأن الإعجاز فى خلق آدم من غير أم وأب أشد وأظهر.

يقول تعالى عن إبراهيم عليه السلام: **﴿وحاجه قومه قال**

أتحاجُّونى فى الله وقد هَدانِ ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئاً وسع ربى كل شىء علما أفلا تتذكرون، وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا فأىُّ الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون﴾ (الأنعام ٨٠، ٨١).

ومما ينبغى أن يوضع موضع الملاحظة أن الله تعالى قدم لنا فى إطار إيراده لقصة إبراهيم عليه السلام مادة قرآنية لايستغنى عنها المحاور المسلم فى حواره مع غير المسلمين، على أمور اعتقادية وبالذات وجود الله ووحدانيته، وتهافت دعاوى أهل الشرك وبطلانها.

ويقول تعالى وكأنه يضع أيدينا على الموضوعات والنقاط التى يمكن الحوار فيها بل إنه قد يتحتم أحيانا الحوار عليها مع غير المسلمين.

﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم * إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب * فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد﴾ (آل عمران : ١٨ ـ ٢٠).

شهادة الله هنا جاءت سابقة لكل شهادة بأنه الإله المتفرد

بالإلهية لجميع الخلائق، وبالتدبير لكل المربوبين، ثم جاءت بعدها شهادة العلماء الذين أودع الله علمه فيهم، ثم ملائكته المعصومين بإثبات الألوهية لله وتنزيهه عن عوارض النقص؛ وبأن الإسلام هو دين الله لا غيره، يقول تعالى: **﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾** (آل عمران : ٨٥).

ويدور الحوار فى هذه الآيات، حول مفهوم الإسلام، وتحديد نوع الدين المرضى من الله تعالى، وتبين الآيات كذلك ما ينبغى أن يكون عليه موقف المسلمين فى حالة احتدام الجدال، وإصرار الطرف الآخر على موقفه «فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله» ومما يدل على جواز الحجاج فى العقائد أيضا قوله تعالى: **﴿قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم، ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون﴾ (البقرة : ١٣٩)** ومعناه هل تناظروننا وتحاوروننا فى توحيد الله والإخلاص له، والالتزام بتعاليمه الصحيحة والانقياد لأوامره ونواهيه، ومن أخلص قلبه لله فقد أخلص فى توحيده وتنزيهه.

ويقول تعالى فى الاستنكار على الكفار لمجادلتهم فى وجود الله **﴿ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لايهدى القوم الظالمين﴾ (البقرة ٢٥٨).**

وفى القرآن مواقف حوارية أخرى كثيرة كذلك، ولكن لم يعبر

عنهـا بلفظ الحـوار أو الجـدال أو الحِـجـاج، وإنما جـاءت كموضوعات مباشرة وذلك مثل الحوار بين الله تعالى والملائكة بشأن خلق آدم، أو بين الله تعالى وإبليس بشأن رفضه السجود لآدم (البقرة ٣٠ ـ ٣٧)، الأعراف (١١ ـ ١٨). أو بين الملائكة والكفار عند دخول النار (الزمر ٧١ ـ ٧٢). أو بين موسى وفرعون، وبين الأنبياء وأقوامهم بصورة عامة، ومثل هذه المواضع كثيرة فى القرآن لمن أراد أن يتتبعها.

وقد طبق النبى ﷺ الحوار القرآنى عمليا فى دعوته إلى الإسلام، على مدار تاريخ الدعوة، وقد استمرت الروح الحوارية المنبثقة من الإسلام والملازمة لروح التسامح الإسلامى عبر الأجيال وإلى اليوم، وذلك لأن الحوار كما قلنا يعد آلية قرآنية، ووسيلة إسلامية فى الدعوة إلى الله تعالى، بل وفى التعايش السلمى مع غير المسلمين.

ولإيماننا نحن المسلمين بقيمة الحوار وما قد يؤدى إليه من ثمار عقد الأزهر عدة حوارات سواء فى شكل لقاءات وزيارات تتخللها الأسئلة والأجوبة، أو فى شكل إيفاد مبعوثين عنه فى حضور مؤتمرات الأديان فى الخارج وقد شارك كاتب هذه السطور وفضيلة رئيس جامعة الأزهر الدكتور أحمد عمر هاشم فى أعمال مؤتمر قمة الأديان الذى انعقد فى مدينة كيوتو باليابان عام ١٩٩٧ كممثلين عن الأزهر الشريف. ويهتم المجلس الأعلى للشئون الإسلامية كذلك بالحوار وذلك من خلال مؤتمراته الدولية السنوية التى يعقدها فى القاهرة، والتى كان آخرها «الإسلام

ومستقبل الحوار الحضارى» والذى انعقد تحت رعاية رئيس الجمهورية السيد محمد حسنى مبارك ورئاسة فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر، الدكتور محمد سيد طنطاوى، وأمانة الدكتور محمود حمدى زقزوق وزير الأوقاف، وحضره كبار علماء الإسلام والمسيحية فى الداخل والخارج. ومما يبرز اهتمام المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالحوار ما جاء فى قرارات مؤتمره الثامن من نصوص تدعو إلى الحوار وتنبه على ضرورته فى عصرنا الحاضر؛ إذ جاء فى البند الثامن: يناشد المؤتمر القائمين على شئون التعليم بذل المزيد من العناية والاهتمام بالتعليم، وتاريخ الأمة الإسلامية واللغة العربية والتربية الوطنية، وضرورة التنسيق بين برامج التعليم فيما بين البلاد الإسلامية بهدف تنمية الانتماء والولاء لأمتهم مما يمهد السبيل لحوار بناء مع الحضارات الأخرى.

وشكل الأزهر لجنة للتنسيق بين الأزهر والفاتيكان فى شهر يوليو عام ١٩٩٦ وقد تبنت هذه اللجنة قرارات مؤتمر السوربون المنعقد فى يونيو ١٩٩٤، والذى نظمه الاتحاد الدولى للأديان الثلاثة وتعليم السلام[١]. وشكلت كذلك لجنة الاتصال الإسلامى الكاثوليكى والتى تضم الأزهر الشريف ورابطة العالم الإسلامى. والمجلس الإسلامى العالمى للدعوة والإغاثة. ومؤتمر العالم الإسلامى، ومنظمة المؤتمر الإسلامى، وستة أشخاص من الجانب الكاثوليكى ترك أمر تعيينهم إلى الفاتيكان (P.174).

---

(١) انظر الإسلام ومستقبل الحوار الحضارى. القاهرة. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م العدد ١٥ من سلسلة قضايا إسلامية.

ونتساءل الآن ما هو مستقبل الحوار وما هى ثمرته المرجوة؟

«إن ما نلاحظه اليوم فى الغرب على المستويين الدينى والسياسى لايبشر كثيراً بمستقبل جيد للحوار، ولاينبىء كذلك عن تقارب فى وجهات النظر بين الغربيين والمسلمين أو بين شعوب العالم بصفة عامة، فهناك مشكلات معقدة وحساسة تتهدد العلاقات الإنسانية بل تتهدد الديمقراطية الغربية والهياكل والمؤسسات السياسية المنبثقة عنها، والتى يسعى الغرب إلى فرضها ـ أو هكذا يبدو ـ على جميع دول العالم، إن النظم الغربية نفسها آيلة للسقوط، ومهددة من داخلها بكثير من الأمراض الفتاكة، فاليمين المتطرف ينتشر اليوم كالسرطان فى جميع مؤسسات الدول الغربية، وينشب أظافره الحادة فى الأنسجة الحية للديمقراطيات الغربية بجميع أشكالها وصورها. وإنه لمن أسباب المخاطر التى تتهدد عالم اليوم شيوع مثل هذه المفاهيم، صراع الحضارة، سياسة القطب الواحد، العولمة، والكوكبية، وظهور النعرات القومية، وعودة ما يسمى بالقبلية الفكرية، والإثنينية الأصولية.

إن هناك تناقضا حادا فى الغرب ينذر بخطر شديد، هذا التناقض يتمثل فى العولمة والكوكبية التى يراد لها أن تحل محل الثقافات والتقاليد الخاصة للشعوب، بل ومحل القيم الإنسانية الرفيعة التى هى عماد الوجود الإنسانى. وفى الوقت نفسه نلاحظ أن اليمين المتطرف وبالذات فى فرنسا يتراجع عن مفهوم «عالمية الإنسان» وينحاز نحو التقوقع داخل إطار «القومية الذاتية»، والتوجس من الآخر بل كراهيته، والعمل على التخلص

منه بدلا من الاعتراف به والتعاون معه، فإن اليمين المتطرف فى ألمانيا وفى بون بوجه خاص يعادى فكرة أوروبا الموحدة، يضاف إلى ذلك أنه يوجد فى هذا البلد اثنان وثمانون منظمة وجمعية تقوم برامجها على أساس العنف، هذه المنظمات والجمعيات الألمانية لها علاقة قوية بجماعات النازيين الجدد، والفاشية الجديدة فى سائر أنحاء أوروبا وبالأخص فى فرنسا والنمسا.

وفى بريطانيا قد زادت الجبهة القومية National Frant قوة وأصبحت إلى حد ما تسبب قلقاً فى البلاد، كما أصبحت تزعج الأجانب المقيمين فى إنجلترا بصورة واضحة. وفى إيطاليا يتربع على قمة حزب اليمين المتطرف جيانافراكو ميفينى الذى يلتف حوله جماعات حليقى الرؤوس. وإن زعيم هذا الحزب الفاشستى الذى تأسس فى عام ١٩٤٦ لايتردد فى الإعلان عن أصوله الموسولينية. ومن المطالب التى يعلنها هذا الحزب المتطرف، رفض السيطرة الأمريكية وتقليص المساعدات إلى دول العالم الثالث، والمطالبة بإنفاق أكثر على الأسلحة وعلى تطوير الطاقة النووية للبلاد، وأخيرا فقد انتصر فلاديمير جيرنوفسكى اليمينى الروسى المتطرف فى الانتخابات التشريعية لبلاده. والعجيب أنه بعدما كان جيرنوفسكى مستهدفا بالنقد الشديد وصل إلى السلطة التشريعية فى انتخاب جماهيرى، مما أجبر الرئيس الروسى يلتسين أن يعلن عن استعداده للتعاون معه. ولقد لقى نجاح جيرنوفسكى ترحيباً كبيراً من قبل زعماء التطرف اليمينى فى ألمانيا فقد أعرب جير هارد فيرى وفراند شونهميير على

سبيل المثال بقوة اليمين المتطرف الروسى. إن العالم يمر بعدة أزمات أهمها الأزمة الحضارية والأزمة الخلقية، والغرب لم يعد قادرا على تقديم إطار بديل للقيم التى يتهددها نظامه. وهناك أزمات أخرى تأتى بعد هاتين الأزمتين: الأزمة الاقتصادية والأزمة السياسية(١). إن ظهور اليمين المتطرف فى الغرب وفى روسيا يعد فى نظرنا عودة إلى الوراء، إلى عصر النظم الديكتاتورية المنهارة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن خطة قوى التطرف اليمينى فى الغرب وأهدافها واحدة، وإن تعددت أشكالها وآلياتها، فهى جميعا تعمل للغرض نفسه؛ الحكم الشمولى والعنصرية والاستعلاء، ولكننا مع هذا نأمل أن يتغلب العالم على هذه الأزمات والعقبات وأن يقبل أكثر على تفاهم وتعاون بين شعوبه، وعلى تحييد وتهميش أدوار اليمين المتطرف، وكل قوى التطرف والإرهاب فى العالم بشكل عام.

التفاوض: مفهومه وعلاقته بالحوار

وأما بالنسبة للحوار والتفاوض والعلاقة بينهما، فإن التفاوض وفوض إليه الأمر صيره إليه وجعله الحاكم فيه. والمفاوضة الشركة العامة فى كل شىء، وتفاوض الشريكان فى المال إذا اشتركا فيه أجمع، وهى شركة المفاوضة، وفاوضه فى أمره أى جاراه فيه؛ وتفاوضوا الحديث أى أخذوا فيه، وتفاوض فى الأمر أى فاوض فيه بعضهم بعضا، وفى حديث معاوية قال لدغفل بن حنظلة: بم ضبطت ما أرى؟ قال: بمفاوضة العلماء، قال وما

(١) انظر الأهرام ١ إبريل ١٩٩٨ ص ٧.

مفاوضة العلماء؟ قال كنت إذا لقيت عالماً أخذت ما عنده وأعطيته ما عندى»[1].

وقد وردت عبارة التفاوض فى سيرة ابن هشام حيث عرض لنا المفاوضة التى تمت بين أبى سفيان بن حرب والمغيرة وبين ثقيف[2] وقد تفاوض النبى ﷺ قبل الهجرة مع المشركين عندما طلبوا منه عهدا يكون بينه وبينهم، وذلك قبل موت عمه أبى طالب يحدثنا ابن هشام عن ابن إسحاق أن وفدا من أشراف المشركين، وعلى رأسهم: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف وأبو سفيان بن حرب ذهبوا إلى أبى طالب فقالوا له: يا أبا طالب، إنك منا حيث قد علمت، وقد حضرك ما ترى، وتخوفنا عليك وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك، فادعه، فخذ له منا، وخذ لنا منه، ليكف عنا، ونكف عنه، وليدعنا وديننا، وندعه ودينه؛ فبعث إليه أبو طالب، فجاءه، فقال: «يا ابن أخى: هؤلاء أشراف قومى، قد اجتمعوا لك ليعطوك، وليأخذوا منك». قال فقال رسول الله ﷺ «نعم كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم». قال: فقال أبو جهل: «نعم وأبيك، وعشر كلمات»؛ قال: تقولون: «لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه». قال فصفقوا بأيديهم ثم قالوا: أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلها واحدا، إن أمرك لعجب! قال بعضهم لبعض إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئا مما

---

(١) لسان العرب ٧ / ٢١٠.

(٢) أنظر سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٩٤.

تريدون، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه، فتفرقوا. وقد تفاوض النبى ﷺ مع ممثل قريش عند الحديبية، وكانت المفاوضات حول دخوله ﷺ مكة. فى شهر ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة، وقبل نهاية هذه السنة، بشهرين تقريبا جاء النبى ﷺ من المدينة قاصدا مكة بغرض أداء العمرة وليس بغرض الحرب، وقد استنفر من حوله من عرب البوادى المجاورة ومن الأعراب ليخرجوا معه تحسبا لأى موقف هجومى قد تتخذه قريش، إلا أن هؤلاء الذين دعاهم الرسول ﷺ لم يستجيبوا على الفور مما جعل الرسول ﷺ ومن معه يتجهون صوب مكة ومعهم الهدى، وأحرم النبى ﷺ بالعمرة حتى يعلم الناس أنه إنما خرج لزيارة البيت الحرام وليس للقتال. وفى عسفان لقى رسول الله ﷺ سفيان الكعبى فقال له: هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجوا ومعهم العوذ والمطافيل (يعنى النساء والأطفال)، قد لبسوا جلود النمور وقد نزلوا بذى طوى يعاهدون الله لاتدخلها (أى مكة) عليهم أبدا، وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم قد قدموها إلى كراع الغميم (ذى طوى وكراع الغميم موضعان بين مكة والمدينة) فقال رسول الله ﷺ: (يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب فإن هم أصابونى كان الذى أرادوا، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش، فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهرنى الله، أو تنفرد هذه السالفة، يعنى تطير عنقه[1]. وسلك

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ١٩٧.

النبى ﷺ طريقا وعرا مجهدا لسالكيه وظل حتى أفضى إلى أرض سهلة عند منقطع الوادى قال رسول الله ﷺ لأصحابه وقد انتهى بهم الجهد: «قولوا نستغفر الله ونتوب إليه فقالوا ذلك، فقال: والله إنها للحطة (أى طلب المغفرة وحط الذنوب) التى عرضت على بنى إسرائيل فلم يقولوها مشيرًا ﷺ بهذا إلى ماورد فى الآية الكريمة بشأن اليهود ﴿**وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين**﴾ (**البقرة : ٥٨**). ومعنى قولوا حطة أى قولوا يا رب حط عنا خطايانا، ولكنهم بدل أن يقولوا حطة كانوا يقولون حنطة أى شعيرا أو قمحا، يعنى أنهم فضلوا أن يسألوا الله الطعام، بدلا من أن يسألوه مغفرة الذنوب والفوز بالغفران. وبينما كان الرسول ﷺ يسير باتجاه مكة إذ بركت ناقته فى مكان يقال له ثنية المرار فقال الناس خلئت (حرنت) الناقة فقال ﷺ ما خلئت وما هو لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة. لاتدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألوننى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها. ونزل الرسول ﷺ وصحبه فى هذا المكان الذى لم يكن فيه ماء ولما اشتد العطش بالمسلمين أرسل ﷺ بسهم له أمر حامله أن يغرسه فى قليب (بئر) هناك وما كاد حامل سهم رسول الله يغرس السهم فى البئر حتى جاش منه الماء وحتى ضرب الناس عنه بعطن.

قال الزهرى فى حديثه إنه لما اطمأنّ رسول ﷺ (فى هذا

المكان) جاءه بديل بن ورقاء الخزاعى فى رجال من خزاعة فكلموه وسألوه: ما الذى جاء به؟ فأخبرهم أنه لم يأت يريد حربا، وإنما جاء زائرا للبيت ومعظما لحرمته، ثم قال لهم نحوا مما قاله لبشر ابن سفيان، فرجعوا إلى قريش، فقالوا يا معشر قريش إنكم تعجلون على محمد، إن محمدا لم يأت لقتال، وإنما جاء زائراً لهذا البيت، فاتهموهم وجبهوهم (واجهوهم) وقالوا: وإن كان جاء ولايريد قتالا، فوالله لايدخلها علينا عنوة أبدا، ولا تحدث بذلك عنا العرب. لم يخرج هذا التعنت من قبل قريش رسول الله ﷺ عن نيته وقصده فى تحقيق الأمن والسلام، والخير للناس فلم يقابلهم بالشدة، ولم يهددهم بل حرص على التأكيد لقريش أنه لم يأت غازيا ولا محرضا على القتال، وأنه لا يريد كذلك أن يدخل مكة عنوة، ولكن قريشا لم تغير موقفها المتعنت ذلك ولم تحد عنه مما اضطر النبى أن يرسل إليهم عثمان بن عفان ليؤكد لهم أن محمدا لم يأت لحربهم، وإنما جاء زائراً للبيت معظما له فخرج عثمان ووصل بالفعل إلى مكة إلا أن قريشا تجاوزت الحدود والعهود فحبسته عندها وطار الخبر إلى رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل فجاءت بيعة الرضوان تحت الشجرة كنتيجة لهذا الخبر، إذ بايع رسول الله ﷺ أصحابه على الثبات فى حالة ما إذا هاجمتهم قريش، وقد بايع النبى ﷺ لعثمان بوضع إحدى يديه على الأخرى؛ إلا أنه لم يلبث أن جاء الخبر يكذب ما كان قد وصل إلى رسول ﷺ من قبل بشأن مقتل عثمان. وعلى الرغم من هذا الإعداد الإيمانى والنفسى للمسلمين وعلى الرغم من

(١) أنظر ص ١٣٨ ـ ١٤٩.

تعاهدهم على الموت قبل النبى ﷺ الدخول فى التفاوض مع قريش. بعثت قريش سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ للتفاوض معه وزودت قريش مبعوثها بمطالبها وشروطها إذ قالوا له: ائت محمدا فصالحه، ولا يكن فى صلحه إلا أن يرجع عنا عامنا هذا فوالله لاتحدث العرب عنه أنه دخلها (أى مكة) عنوة أبدا فأتاه سهيل بن عمرو فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلا قال: قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل وعرض سهيل شروط أهل مكة؛ ثم جرى بينهم الصلح ولم يبق إلا أن يكتبوه حتى وثب عمر ابن الخطاب يعلن عن غضبه لأبى بكر رضى الله عنه، قال له يا أبا بكر أليس برسول الله: قال بلى، قال: أو لسنا بالمسلمين؟ قال بلى، قال: أو ليسوا بالمشركين، قال: بلى، قال فعلام نعطى الدنى (الذل) فى ديننا؟ قال أبو بكر: يا عمر، الزم غرزه (أى الزم أمر رسول الله) فإنى أشهد أنه رسول الله، قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله، ثم أتى عمر رسول الله ﷺ فقال له مثل ما قال لأبى بكر فقال له رسول الله ﷺ: أنا عبد الله ورسوله، لم أخالف أمره، ولن يضيعنى، فكان عمر يقول مازلت أتصدق وأصوم وأصلى وأعتق، من الذى صنعت يومئذ، مخافة كلامى الذى تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيرا[1]. وكتبت وثيقة الصلح تتويجا لهذه المفاوضات على الرغم مما فيها من إجحاف بحق رسول الله وحق المسلمين ومع هذا قبلها رسول الله وقد تبين أن هذه المفاوضات الناجحة وقبول شروط قريش المجحفة كانت مقدمة عظيمة لانتشار الإسلام ولقوة المسلمين ثم

---

(١) انظر نفس المصدر ٢٠٣ .

لدخول مكة وتطهيرها من الأصنام والأوثان ومن طواغيت الشرك فيها، وكانت هذه المعاهدة هى الفتح الحقيقى الذى فتحت مكة على أثره، وفتح العالم كله على أثر فتح مكة.

فالتفاوض على هذا يتضمن معنى الأخذ والعطاء، وتبادل الآراء وهو بهذا يكون قريبا فى المعنى من الحوار، ولكن معنى التفاوض الدقيق يتضمن ضرورة استعداد كل طرف أن يتنازل عن شىء من مطالبه للطرف الآخر، حتى يكون للتفاوض ثمرة، وإلا فلا معنى له أبدا. والتفاوض غالبا ما يكون على أشياء وموضوعات مادية أو على شروط وقرارات تتصل بأشياء وموضوعات من هذا النوع؛ أما الحوار فيكون على مبادىء وأفكار ومعتقدات مجردة غالبا؛ وليس من مطالب الحوار، أو هكذا ينبغى أن يكون، أن يحصل أحد الفريقين المتحاورين على مصلحة أو مكسب مادى بطريق مباشر وعلى الفور.

إذا استبان هذا الفرق بوضوح حسن أن نقول إنه من حيث الكفاءات والمؤهلات العقلية والنفسية ومن حيث العلمية، والخبرات العملية، فإن التفاوض والحوار يتطلبهما جميعا. وبالتالى فإن ما يتطلب فى المحاور، إنما هو الشىء نفسه الذى يتطلب فى المفاوض، مع الاحتفاظ بخصائص كل منهما من حيث مادة وموضوع الحوار والتفاوض. فالتفاوض إذن يكون على المصالح المادية المباشرة، يقول تران بادى الأستاذ بمعهد الدراسات السياسية فى كلمته التى نشرتها له مجلة Croissance (العدد ١٢). «إن التفاوض على المصالح هو الأولى لأن التفاوض

من وجـهة نظره لايكون مع الثـقافـات؛ وهذا صـحـيح بشكل عـام وذلك لأن الثـقـافـة تمثل الأفكار والأنماط والسلوكيـات الخـاصـة بشعب مـا، والتى لايجوز التفـاوض عليـها لأن التفـاوض يتضـمن مـعنى التنازل، ولاتكون الثـقـافـة مـادية إلا فيـمـا تؤديه أو تعكسـه بالفعل فى عالم الواقع. ونلاحظ أن الكاتب الفرنسى قد خلط هنا بين معنى الحـوار، ومعنى التفاوض ولم يلاحظ الفرق بينهما كما بيناه توا فالحوار يكون على الثقافة وليس التفـاوض، إذ التفاوض خاص بالأعيان أو الماديات كما أوضحناه. نقول وأقل ما يمكن أن ينتـجـه الحـوار من فـوائد أنـه يوسع أفق أهـل الأديان ويزيد من مـعـارفـهم ويخـفف إن لم يلغ بالكليـة التـعـصبـات والأحـقـاد من الصدور؛ هذا إذا أحسنت إدارته وحسنت النوايا والمقاصد من ورائه.

والحـوار هو الذى يغـربل وينقى، ويدعم الثـقـافـات وينمـيـهـا ويقـارب بين المثقفين، وما يقوله الكاتب الفرنسـى تران بادى من أنه «عندما تتحول الثقافة إلى الساحة السياسية فإن التناقضات الثـقـافـيـة سـتـؤدى حـتـمـا إلى الصـراعـات»[1]. قـول يحـتـاج إلى الضبط والتقييد، ولاينبغى أن يؤخذ على علاته هكذا.

نقول إنه على الرغم من اتسـاع مفـهوم كلمة «ثقافة» وشـموله كما بيّناه سابقا، فإن ظهور الثقافة على السـاحة السـياسـيـة لن يؤدى بالضـرورة إلى الصـراع إلا إذا كـانت السـيـاسـة عنصـرية

(١) على أبو شويمة، الخلفية الثقافية للعلاقة بين الإسلام والغرب، ورقة مقدمة من اتحاد المنظمات الإسلامية فى أوروبا (مؤتمر القاهرة حول تقييم الحوارات الإسلامية المسيحية المنعقد فى الفترة ما بين ١٦ ـ ١٧ شوال ١٤١٨هـ ١٣ ـ ١٤ فبراير ١٩٩٨ ص٥).

متسامية لاتتسع حوصلتها للاختلافات الثقافية التى هى ضرورة إنسانية بحكم الاختلاف العقلى والفكرى، الفطرى والكسبى بين البشر. إننا بالتالى لن نفاوض على الثقافة كما قال تران، بل نتحاور فيها، والفرق كبير بين أن نتحاور وأن نتفاوض، على أن الحوار قد يصل بنا إلى نوع من المجانسة الفكرية والتقارب فى وجهات النظر لصالح البشرية.

ولايفوتنا أن ننبه أيضا على أن كلام تران السابق يؤكد إصرار الأوروبيين على الاحتفاظ بالخصوصية الثقافية فى الوقت الذى تحاول فيه أوروبا أن تلعب فى «الكود» النظام الثقافى أو الشفرة الثقافية للشعوب لإعادة ترتيب المنظومات الثقافية فى العالم بما يتفق مع خصوصيتها.

إننا نلاحظ من خلال دراستنا لمعطيات هذا القرن الذى توشك شمسه أن تغرب، إن الغرب قد تميزت اتجاهاته بالميل إلى: التجميع والتنميط والاستنساخ وإعادة ترتيب الجينات والتهجين وإعادة تنظيم العالم، وفرض قيم جديدة على المجتمعات؛ وإلى العولمة والكوكبية، هذا مع مراعاة أن الغرب لايطبق هذه العمليات فى المجال المادى العملى فحسب وإنما يطبقها أيضا على الدين والثقافة والتقاليد وكل موروث إنسانى؛ وسعى بشرى.

المناظرة والجدل

المناظرة مأخوذة من نظر، وهى أن تناظر أخاك فى أمر ما، إذا نظرتما فيه معاً كيف تأتيانه، والجدل شدة الخصومة يقال جادله أى خاصمه ولذلك نهى الله تعالى عن الجدال فى الحج ﴿ولا

فسوق ولا جدال فى الحج﴾ البقرة : ١٩٧ ويقول تعالى فى الجدل المذموم **﴿ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون﴾** (الزخرف ٥٨). **﴿وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال﴾** (الرعد ١٣).

ولكن ينبغى أن نعلم أن القرآن قد أباح الجدل بشرط أن يكون فى نشدان الحق أو لدفع الباطل لا غير يقول تعالى : **﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن﴾** (العنكبوت ٤٦). **﴿وجادلهم بالتى هى أحسن﴾** (النحل ١٢٥).

وعلى هذا يكون الجدل هو مقابلة الحجة بالحجة.

وأما إمام الحرمين الجوينى وهو من المناظرين الكبار، فيقول إنه «لا فرق بين المناظرة والجدال والمجادلة، والجدل فى عرف العلماء بالأصول والفروع» وهو يرى أن الفرق بين الجدل والمناظرة هو فرق من حيث اللغة فحسب لأن كلا منهما مشتق من غير المادة التى اشتق منها الآخر[١].

ويستمر إمام الحرمين فى حديثه عن الجدل قائلاً : إن من الجدل ما يكون محموداً مرضياً، ومنه ما يكون مذموماً محرماً؛ والمذموم منه ما يكون لدفع الحق، أو تحقيق العناد، أو ليلبس الحق بالباطل .. أو طلب الجاه ... (p. 22).

ويضيف الإمام هذا الكلام عن الجدال المحمود «وأما الجدال المحمود المدعو إليه، فهو الذى يحقق الحق، ويكشف عن الباطل،

---

(١) الكافية فى الجدل ص ١٩.

ويهدف إلى الرشد، مع من يرجى رجوعه عن الباطل إلى الحق، وفيه قال سبحانه وتعالى ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن**﴾ النحل ١٢٥ وقوله تعالى : ﴿**قل هاتوا برهانكم**﴾ (البقرة ١١١).

وقال ﷺ : «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين**»(١).

ويبين إمام الحرمين أن الجدال والمناظرة يكونان فى التوحيد أو علم الكلام، وفى علم الشريعة، أى الفروع؛ ويؤصل إمام الحرمين للجدال والمناظرة فيقول : «وهى ـ أى المناظرة ـ سيرة الرسل عليهم السلام مع أممهم، وسيرة رسولنا ﷺ، وسيرة علماء الصحابة رضى الله عنهم بعده، ومن بعدهم من التابعين، إلى يومنا هذا؛ وعليه عادة العقلاء فى أديانهم ومعاملاتهم، ويفزع العقلاء إلى النظر والمناظرة فيما غاب عنهم من حواسهم.»

ويطلعنا ابن خلدون فى المقدمة(٢) عن ظهور المذاهب الفقهية وتطورها وأسباب هذا الظهور والتطور فيقول» ... وجرت بينهم المناظرات فى تصحيح كل منهم مذهب إمامه تجرى على أصول صحيحة وطرائق قويمة يحتج بها كل على مذهبه الذى قلده وتمسك به، وأجريت فى مسائل الشريعة كلها، وفى كل باب من أبواب الفقه».

كما عقد حجة الإسلام الإمام الغزالى وهو من فطاحل

---

(١) رواه البخارى شهادات فى باب العلم. ٢٧ ورواه أحمد فى المسند ١٨٥/٢ والدارمى مقدمة : ٢٤.

(٢) تحقيق عبدالواحد وافى ط. القاهرة. ١٠٦٠/٣.

المناضلين أيضاً باباً خاصاً بالمناظرة والجدل وهو الباب الرابع في كتابه الموسوعي إحياء علوم الدين.

استهل الإمام الغزالي كلامه بالتأريخ لظهور الخلافات الفكرية في الأمة. حيث ربطه بظهور الفقه وعلم الخلاف وعلم الكلام كما قرره ابن خلدون أيضاً من بعده، يقول الإمام الغزالي «وقد كان أكثر الإقبال في تلك الأعصار (يعني عصر الخلفاء والتابعين والسلف الصالح) على علوم الفتاوى والأقضية لشدة الحاجة إليها في الولايات والحكومات، ثم ظهر بعدهم من الصدور والأمراء من يسمع مقالات الناس في قواعد العقائد ومالت نفسه إلى سماع الحجج فيها، فعمت رغبته إلى المناظرة والمجادلة في الكلام فأكب الناس على علم الكلام وأكثروا فيه التصانيف، ورتبوا فيه طرق المجادلات، واستخرجوا فنون المناقضات في المقالات، وزعموا أن غرضهم الذب عن دين الله، والنضال عن السنة، وقمع المبتدعة، كما زعم من قبلهم أن غرضهم بالاشتغال بالفتاوى في الدين وتقلد أحكام المسلمين إشفاقاً على خلق الله، ونصيحة لهم. ثم ظهر بعد ذلك من الصدور من لم يستصوب الخوض في الكلام وفتح باب المناظرة فيه، لما كان قد تولد من فتح بابه من التعصبات الفاحشة، والخصومات الفاشية المفضية إلى إهراق الدماء وتخريب البلاد، ومالت نفسه إلى المناظرة في الفقه...»[1].

ثم يبين الإمام الغزالي ما يمكن أن يدخل في المناظرات من

(١) إحياء علوم الدين ١/٥٥.

تلبيسات إبليس وتمويه أجناده وأعوانه فهو يفحص دعاوى الملبسين، والمتوصلين بالجدال والمناظرة إلى التشكيك فى الدين وزعزعة الإيمان واليقين. فهم قد يتعللون عن الشغل بالمناظرة، بأنهم إنما يبحثون عن الحق : «فإن الحق مطلوب، والتعاون على النظر فى العلم وتوارد الخواطر مفيد ومؤثر» (P. 56) ويضيف حجة الإسلام قائلا : «إن التعاون على طلب الحق من الدين ولكن له شروط وعلامات ثمان».

١ - ألا يشتغل به وهو من فروض الكفايات من لم يتفرغ من فروض الأعيان.

٢ - ألا يرى فرض كفاية أهم من المناظرة فإن رأى ما هو أهم وفعل غيره عصى بفعله. فلا يشتغل أحد بالمناظرة وفى جهته كفايات مهملة أو ينشغل بما لا يعود بفائدة على الناس، وألا يناظر فى مسألة لا يتفق وقوعها قط، وأمامه فى مجلس مناظرته ما يستوجب الإنكار ولكنه ساكت عليه.

٣ - أن يكون المناظر مجتهداً يغنى برأيه، ويجتهد فى طلب الحق، وأن يقبله أينما وجد، بلا تعصب أو نفرة.

٤ - ألا يناظر إلا فى مسائل واقعة أو محتملة الوقوع غالباً وأن يجتهد فى النظر فيما تعم البلوى به وألا يهتم بـ «الطبوليات التى تسمع فيتسع الجدل فيها كيفما كان الأمر» (P. 57). والطبوليات الكلام الذى ليس من ورائه إلا إثارة الضجة والبلبلة بين الناس.

٥ - أن تكون المناظرة فى الخلوة وبعيداً عن المحافل وعن حضرة

ولاة الأمر «فإن الخلوة أجمع للفهم وأحرى لصفاء الذهن والفكر، ودرك الحق. وفى حضور الجمع ما يحرك دواعى الرياء ويوجب الحرص على نصرة كل واحد نفسه محقاً كان أو مبطلاً». ولكننا نرى أنه إذا تحتم أن تكون المناظرة بحضرة الجمهور أو بحضرة ولاة الأمر والوجهاء وكان فى ذلك منفعة ظاهرة ومقصداً أسمى من مجرد حب الغلبة والظهور فلا بأس بذلك، بل إن المناظرة قد تكون ضرورية فى هذه الحالة وبخاصة فى أيامنا تلك التى تداعى فيها أصحاب الأفكار والدعوات الباطلة على الإسلام وتواترت هجماتهم وطعونهم عليه؛ بل إنه يكاد يكون من شرط المناظرة والمحاورة أن تكون بحضرة الجمهور، فإن حصول المناظرة بحضرة الجمهور الكبير يساعد على شحذ الذهن وتوليد الفكرة وانقداح الرأى. المهم أن الإمام الغزالى يشترط أن تكون المناظرة لوجه الحق وأن تكون خالية من الرياء.

٦ - أن يكون المناظر فى طلب الحق كناشد ضالة لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يده أو على يد من يعاونه؛ وأن يرى رفيقه معينا لا خصما، ويشكره إذا عرفه الخطأ، وأظهر له الحق، كما لو أخذ طريقه فى طلب ضالته فنبهه صاحبه على ضالته فى طريق آخر فإنه كان يشكره، ولا يذمه ويكرمه ويفرح به؛ فهكذا كانت مشاورات الصحابة رضى الله عنهم، كما أن امرأة ردت على عمر رضي الله عنه ونبهته إلى الحق وهو فى خطبته على ملأ من الناس فقال: أصابت امرأة وأخطأ عمر. وسأل

رجل عليا رضي الله عنه فأجابه فقال: ليس كذلك يا أمير المؤمنين، ولكن كذا وكذا، فقال: أصبتَ وأخطأتُ، وفوق كل ذى علم عليم.

٧ - ويمضى الإمام الغزالى فى سرد شروط المناظرة الصحيحة فيقول: «ألا يمنع (أى المناظر) معينه فى النظر من الانتقال من دليل إلى دليل ومن إشكال إلى إشكال، فهكذا كانت مناظرات السلف، ويخرج من كلامه جميع دقائق الجدل المبتدعة فيما له وعليه «ثم يذكر حجة الإسلام تحت هذا الشرط ضرورة الاعتراف بالحق والتمسك بالبرهان وعدم التمحك أو ادعاء ما ليس للإنسان به علم فإن هذا مصادم لأخلاق الإسلام، كما أنه يعرض لسخط الله عز وجل، وينبغى على الإنسان إن كان ضعيفا أن يقر بضعفه ويخرج نفسه عن ظلمة الجهل إلى نور العلم، وأن يتقلد دائما منهج السلف فى جميع مناظراته.

٨ - وهنا يقدم الإمام الغزالى شرطاً عملياً لوجوب صحة المناظرة، يقول: إنه ينبغى على الإنسان «أن يناظر من يتوقع الاستفادة منه ممن هو مشتغل بالعلم فلا يناظر الإنسان فقط من أجل المناظرة أو الشهرة، أو إظهار الغلبة، كما ينبغى على المناظر أن يفرغ قلبه وأن يطهر لسانه من أعمال الشيطان وغلبته عليه وألا يجادل المرء من هو أعلم منه فى المسائل التى انتهى إليها اجتهاده»[١].

---

(١) إحياء علوم الدين ج١ ، ٥٥ : ٥٨.

بعد أن بين الإمام الغزالي شروط الجدل والمناظرة وآدابهما العالية عقب بذكر آفاتهما والتي نجملها فيما يلي: الحسد وهو يأكل الحسنات ويذهب بالآراء الصائبة. والحقد (وهو مُنافٍ للإيمان، والغيبة التي شأن صاحبها كأكل الميتة دون ضرورة، والكذب وهو أس الرذائل وأصل القبائح، والتجسس وتتبع العورات وهو منهي عنه، والفرح لمساءة الغير وهو خلق يتنافى مع الإيمان، ثم النفاق والاستكبار والرياء. وكل هذه الآفات والعاهات مصاحبة للمتناظرين الذين لا يلتزمون بآداب المناظرة وشروطها التي سبق ذكرها (P. 58-60).

وقد تكلم الإمام الغزالي أيضا عن الجدل والمناظرة في كتابه الرائع المنقذ من الضلال، والذي ترجمته إلى الإنجليزية مع تحقيق جديد للنص العربي ونشرته جمعية الفلسفة والقيم بواشنطن طبعة أولى (بمكتبة الكونجرس عام ١٩٩٥) وطبعة ثانية مدروسة ومنقحة (٢٠٠٠)، في هذا الكتاب أبرز لنا الإمام الغزالي بعض النقاط العملية التي لا يستغنى عنها في عملية الحوار أو المناظرة سواء بين المسلمين أنفسهم، أو بين المسلمين وغير المسلمين وبشكل عام فإننا نستطيع أن نستخلص من كتاب حجة الإسلام هذا نقطتين مهمتين في فن الجدل والمناظرة هما: أولا كيف نواجه الحرب النفسية لأصحاب المذاهب والأفكار الهدامة التي يوجهونها ضد خصومهم، ونجتهد في نفس الوقت للتوصل إلى أسلحتهم ومخططاتهم وإلى كشف أسرار وبواطن دعاواهم الزائفة حتى يسهل علينا ضحدها. وأما ثانيا فإن الإمام الغزالي

يؤكد على ضرورة الإلمام بعلوم وثقافة وطرق الخصم بحيث يتفوق الباحث عن الحق على أعلمهم فيها وذلك قبل أن يدخل فى مناظرة أو حوار معه.

ويبين الغزالى أن الماهر فى صناعة لا يلزم أن يكون ماهرا فى كل الصناعات الأخرى، ثم يقول (فكلام الأوائل فى الرياضيات برهانى، وفى الإلهيات تخمينى لا يعرف ذلك إلا من جربه وخاض فيه). ثم يقول إنه إذا قرر هذا على «الذى ألحد بالتقليد، ولم يقع منه موقع القبول، بل تحمله غلبة الهوى والشهوة الباطلة، وحب التكايس على أن يصر على تحسين الظن بهم فى العلوم كلها. «وهذه آفة عظيمة فى نظر حجة الإسلام الغزالى ينبغى أن ينبه عليها ويحذر من الوقوع فيها، لا بد أن نفصل بين آراء العالم فى العلوم العملية التى تخصص ونبغ فيها، وبين كلام فى الدين فإن التجارب العلمية والنظريات العلمية لا يمكن أن تتخذ دليلا على عدم صحة الدين، بل إنها فى الحقيقة تصلح للبرهنة على صحة الدين ووجوب اليقين. والآفة الثانية فى نظر الإمام الغزالى إنما دخلت على الإسلام من جهة من سماه «صديق للإسلام جاهل» ومثل هذا الشخص يظن خطأ أن الدين ينبغي أن ينصر بإنكار كل علم منسوب إلى هؤلاء العلماء، وبالتالى فقد أنكر جميع علومهم وادعى جهلهم فيها حتى أنكر قولهم فى الكسوف والخسوف، وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع، ومن ناحية أخرى لم يشك هؤلاء العلماء أو من اعتقدوا صحة آرائهم أن الإسلام مبنى على الجهل وإنكار البرهان القاطع، وإنه من الجنايات التى ابتلى بها الإسلام إنكار العلوم العملية التى لم

يمنعها الإسلام بل حث عليها وأوجب تعلمها (P. 101, 102) .
وهؤلاء الأصدقاء الجهلة الذين يضرون بالإسلام والمسلمون من حيث يظنون أنهم ينصرونهما موجودون فى كل عصر وفى كل مصر؛ مع أن الإسلام هو دين العلم من أول آية فى كتابه حتى آخر آية فيه.

الباب الثامن
الحوار الإسلامى المسيحى
دراسة وتقويم

إن المسيحية وبالذات الغربية، قد أدركت فحوى الحوار وأهميته بطريق الاضطرار لا بطريق الاختيار غالبا وذلك على أثر ظهور الصحوة الإسلامية وتزايد عدد المسلمين بأوروبا وأمريكا، وظهور الإسلام كقوة فاعلة، ومؤثرة على الساحة الدولية.

انبثقت الرغبة فى الدخول فى حوار مع المسلمين عن المؤتمرات التنصيرية العالمية المتعاقبة وكنتيجة أيضا لآراء بعض الشخصيات العالمية الغربية فعلى سبيل المثال فى المؤتمرات التنصيرية التالية ظهرت الدعوة إلى ضرورة الدخول فى حوار مع المسلمين وأصحاب العقائد والأيدلوجيات المختلفة:

المؤتمر التنصيرى الذى عقده المنصر ورجل الدولة صمويل زويمر بالقاهرة عام ١٩٠٦م وحضره ستون ممثلا لثلاثين إرسالية وكنيسة ومؤتمر كندا والذى نظمه زويمر أيضا للغرض نفسه وهو تنصير العالم الإسلامى، ثم مؤتمر أدنبرة بالمملكة المتحدة عام ١٩١٠م (Islam 1968 compendium) وترجمته «التنصير خطة لغزو العالم الإسلامى (P. 52, 53)، ومؤتمر القدس ١٩٢٨، ومؤتمر تمبرام ١٩٣٨ فى مثل هذه المؤتمرات ظهرت الدعوة إلى ضرورة التدبر اللاهوتى فى أهمية العقائد الأخرى من جانب، ومن جانب آخر فقد أكد المشاركون فى هذه المؤتمرات على ضرورة توحيد الجهود التنصيرية وزيادة التعاون بين الكنائس المختلفة.

وكنتيجة لهذه الدعوة تأسس مجلس الكنائس العالمى The world council of churches فى أمستردام عام ١٩٤٨ ويضم هذا المجلس حاليا أكثر من ٣٢٠ عضوا ويندرج تحته معظم الكنائس البروتستانتية والأرثوذكسية، مع عدد آخر من الكنائس الكاثوليكية القديمة، وكنائس أخرى انضمت إليه كأعضاء مراقبين.

وعلى الرغم من إمكانات المجلس العالمى للكنائس فإنه لم يستطع أن يقوم بالدور الذى يقوم به الفاتيكان مثلا، أو حتى قريبا منه، ولم تصل قراراته بعد من القوة والتأثير إلى قرارات الفاتيكان؛ إلا أن هذا المجلس على أى حال قد ساعد بلا شك على تقريب وجهات نظر المنصرين، وتوحيد جهودهم وساعدهم على التنسيق فيما بينهم على أقل تقدير.

فى عام ١٩٦٤ فتح الفاتيكان صفحة جديدة فى تاريخ علاقته بأهل الأديان الأخرى، وبخاصة المسلمين واليهود، وذلك عندما أعلن عن إنشاء سكرتارية خاصة للأديان غير المسيحية والمعروفة اليوم بـ (pontifical council for intereligious dialogue) والمرموز لها بالحروف PCID. وفى عام ١٩٦٧ شكل الفاتيكان مكتبا سماه المجلس البابوى للحوار بين الأديان، وقد جاء تشكيل هذا المكتب استجابة لنداء المجمع المسكونى الثانى (١٩٦٢ - ١٩٦٥) والذى وضعت فيه قواعد السياسة الجديدة للحوار، واقتفاء لهذا الأثر ، وفى عام ١٩٧١م شكل المجلس العالمى للكنائس لجنة فرعية للحوار مع أهل الديانات الحية، وأهل الأنظمة والمعتقدات

People of diffrent faiths and Idealogies (الأخـــــرى)
والمرموز لها بالحروف DFI وكان إنشاء هذه اللجنة بغرض عقد الحوارات التى من شأنها أن تؤدى إلى التفاهم والتعاون مع أهل الأديان والأنظمة الأخرى، وقد نجحت اللجنة بالفعل فى عقد العديد من اللقاءات التى طرحت فيها العديد من البحوث، وقد عالجت هذه البحوث التى طرحت فى المؤتمر موضوعات مختلفة فى هذا الاتجاه، كما ضمت اللقاءات التى نظمتها لجنة الحوار بمجلس الكنائس بعض الحركات التى لا يعترف بها الإسلام، بل يحكم بكفرها كالبهائية، والقاديانية مثلا التى تنكر ختم النبوة بمحمد ﷺ، كما انضمت تحت هذا اللواء أنظمة وجماعات علمانية إلحادية تحت اسم Humanism وبالتالى فقد ضمت مؤتمرات الأديان أقواما تقوم عقائدهم الدينية على الخرافات والتقاليد الشعبية المتوارثة، ووجد مثل هؤلاء بالتالى مكانا مرموقا بين أتباع الديانات السماوية فى مثل هذه المؤتمرات العالمية. ومن جانبها فقد رفضت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية فكرة اتحاد الكنائس وناهضتها لأنها على نظرها ستفتح الباب لدخول المنشقين Schismatic sects تحت مظلتها.

لم يقتصر الاهتمام بالحوار ووضعه واعتباره وسيلة تنصيرية على الفاتيكان ومجلس الكنائس العالمى فحسب، بل إن المجلس القومى لكنائس المسيح بالولايات المتحدة الأمريكية، وهو أكبر منظمة مسكونية فى أمريكا، أسس أيضا لجنة للحوار أو العلاقات المتبادلة بين النصارى وغيرهم من أهل الأديان

Christian and interfaith relations. ومما يفيد معرفته أن دعاة الحوار من النصارى لا يجعلون الحوار بديلا عن التنصير، ولا يرون كذلك أن دخولهم فى الحوار مع غير النصارى يعنى تسليمهم بصحة أديانهم وبحرية تقرير المصير الدينى إذا صح التعبير، كلا فإن جميع المؤشرات تفيد استمرار جهود المنصرين لإدخال جميع سكان الأرض، وبخاصة المسلمين، فى دين المسيح هذا من جنب، ومن جانب آخر فإن تبنى الحوار كآلية فى مخاطبة الشعوب غير النصرانية نتج عنه فيما نتج ترجمات كثيرة للكتاب المقدس لتوائم الاتجاه الكنسى الجديد، وهذا التبسيط للكتاب المقدس فى شكل الترجمات الجديدة التى روعى فيها ظروف المخاطبين وثقافاتهم يعتبر امتدادا، أو جزءا من خطة الكنيسة الجديدة نحو اقتحام العوالم غير النصرانية، وقد أعرب البابا يوحنا الثانى عن الاستراتيجية الجديدة للتبشير فى العالم، والتى أطلق عليها «التهجين الثقافى» وهى الترجمة التى وضعها أحد علماء المسلمين الكبار (وهو الأستاذ كامل الشريف) للكلمة الإنجليزية Inculturation يعنى محاولة إدخال النصارى ضمن النسيج الدينى أو شبه الدينى، وأيضا فى النسيج الثقافى للشعوب، وهذه الكلمة الجديدة التى وضعها البابا تجعل المسيحية مثل الغصن الذى يقطع من شجرة ثم يوضع فى شجرة أخرى بغرض التلقيح وتحويل ثمار هذه الشجرة الملقحة إلى إنتاج نوع آخر مختلف من الثمار، وهذا التلقيح يغير مع مرور الزمن طبيعة الشجرة الملقحة ونوع ثمارها. اعتبر البابا أحسن

مثال ناجح فى تطبيق مبدأ التطعيم أو التلقيح الدينى والثقافى ما فعله المبشر الإيطالى ماثوريكى (٥٥٢ ـ ١٦١٠) فى الصين حين خلط العظات المسيحية مع التقاليد الصينية وحاول إيجاد لاهوت مشترك بين المسيحية والفلسفة الكونفوشيوسية، واعتبر البابا أن مثل هذا العمل الذى قام به هذا المبشر الإيطالى هو بداية انتشار هذه الديانة المسيحية فى الصين، ودعى البابا بشدة المنصرين إلى تبنى هذه التجربة فى التعامل مع الحضارات الإفريقية القديمة. وإعجاب البابا يوحنا بولس بهذه الخطة إنما يعكسه عنوان كتابه «ادخلوا الأمل» Entrezdons Lespernce.

وقد طبق هذا الأسلوب فى التنصير على المسلمين فقد كان المنصرون يقيمون لشباب المسلمين المعسكرات يقدم فيها الطعام والشراب واللهو على الطراز العربى وقد شاهدناها بأنفسنا فى إنجلترا، مثل هذه الخيام أو التجمعات كانت تقام بغرض وضع الفخاخ للشباب المسلم.

ونتساءل بعد هذا كله هل يعتبر إقرار الكنيسة للحوار عملا خالصا أم أنه يقع ضمن أنشطتها وامتدادا لأهدافها التنصيرية وتعميقا لها؟

على أى حال ومهما يكن الأمر فإنه فى ظل التصريحات والكتابات الكنسية وأعمال وقرارات المؤتمرات التى مر بنا الحديث عن بعضها فإنه فى أعمالها وقراراتها لا يمكن الفصل بين الحوار والتبشير بل لعل الحوار النصرانى هو أحد

الفاعليات المهمة فى الاستراتيجية التنصيرية الجديدة. ونتساءل مرة أخرى هل يفيد المسلمون من الحوار مع النصارى والحال من إصرارهم على تنصير المسلمين، كل المسلمين هكذا؟

الإجابة قد تكون سلبية، يعنى أن المسلمين لن يستفيدوا استفادة مباشرة من الحوار بالدرجة التى تخدم قضاياهم، أو تخفف من آثار الهجمات الأوروبية الموجهة ضدهم وضد دينهم، فالفاتيكان مثلا لم يعترف بنبوة محمد ﷺ إلى الآن بل إنه تكلم بحذر شديد وتحفظ كبير عن الإسلام فى وثيقته التى أصدرها عام ١٩٦٥ إذ لم يرد فيها اسم النبى محمد ﷺ أو لفظ القرآن أو الإسلام، وإنما انصب كلام الوثيقة عن المسلمين وكأنهم بلا نبى وبلا كتاب مقدس وبلا تاريخ.

لقد صورت الوثيقة المسلمين وهى تتحدث عنهم وكأنهم أيتام يبحثون عن أب يرعي شئونهم وهذا الموقف يجعلنا نسير نحو الحوار ببطء شديد وتوجس كبير فى نفس الوقت.

ولكن هل ينبغى أن يتوقف المسلمون عن الحوار ويوصدون أبوابهم دونه؟ الإجابة هنا لابد أن تكون إيجابية أعنى أن المسلمين لا ينبغى أن يتركوا الحوار لأنه ضرورة دينية وإنسانية معا والحوار ليس مباراة لابد فيها من تحقيق مكاسب، أو اجترار الآلام عند الهزيمة، وإنما الحوار واجب دينى، وهو نوع من البلاغ الذى علينا أن نؤديه. أما ما يمكن أن يثمر الحوار أو يسفر عنه من هداية، أو على الأقل تحسين وجهة النظر الغريبة، ولو بعض الشئ، بالنسبة للإسلام، فمتروك لله سبحانه وتعالى: «**فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب**» الرعد : ٤٠.

لكن على المسلمين أن يعدوا للحوار، وأن ينظموا صفوفهم وينسقوا جهودهم ويتعالوا على النزاعات والانقسامات التى تضعف من قيمتهم وتقلل من هيبتهم فى عين الطرف الآخر. لابد أن نتخلص كمسلمين من عقدنا، ومن الوهم الذى يزين لنا كثيرا من أعمالنا ويحول بيننا وبين التعامل مع الأشياء بواقعية، ويحرمنا من الإفادة من أخطائنا.

لابد أن يرتفع المسلمون إلى مستوى المثل التى يدعون إليها فى كل وقت وتحت أى ظرف فإن هذا سوف يوصلنا إلى النجاح بالتأكيد.

وعلينا أن نتذكر أن الفاتيكان ليس له بعد مواقف حاسمة تجاه القضايا التى يعانى منها المسلمون فى العالم، بل إنه قد نادى بتدويل (أى انتزاعها من أيدى المسلمين واليهود وجعلها دولية) القدس هذا ولم ينتقد الفاتيكان سياسة إسرائيل العدوانية والعنصرية أبدا، ولم تكن له مواقف واضحة فى شجب حرب الإبادة التى تعرض لها شعب البوسنة والهرسك المسلم. فهل تنصير المسلمين هو الذى يهم الفاتيكان فقط، وهل لاتتحقق إنسانية المسلم ما دام يحافظ على دينه، وبالتالى فالفاتيكان لا يلبى نداءه إذا استغاث، أو يهرع إلى نصرته إذا حيف عليه وانتهكت أعراضه وأوطانه إلا إذا أعلن إيمانه بالمسيح، أليس فى هذا تناقض بين القول والفعل؟.

آفاق الحوار : الدوافع والموانع

على ماذا نتحاور؟ ومن أجل ماذا نتحاور؟ هل نتحاور على الدين؟ وإذا كان التحاور على الدين هل نتحاور على العقيدة؟ أم على موضوعات أخرى تتصل بالدين ولا تتعرض للعقائد الثابتة لكل دين؟

هل نتحاور على سياسة أو مواقف ومعتقدات سياسية وأيديولوجية؟

هل نتحاور على مفاهيم حضارية وقيم مادية وأدبية مختلفه؟

تؤثر فى اهتمامات وتوجهات الناس؟ وبالنسبة للسؤال على ماذا نتحاور؟ فإن المسلمين لا يمانعون أن يدخلوا فى أى موضوع دينى ومدنى بما فى ذلك العفيدة نفسها، وقد بينا أن القرآن قد نقل إلينا محاورات الأنبياء حول وجود الله وتدبيره فى الخلق وغير ذلك إلا أن الفاتيكان حتى الآن لا يقبل الدخول فى حوار مع المسلمين على العقائد وقد صرح بذلك ممثل الفاتيكان الكاردينال أرنزى رئيس المجلس البابوى ونائب بابا الفاتيكان فى أكثر من مناسبة أمامنا وقد سمعنا ذلك منه فى لجنة الإعداد لمؤتمر بكين فى الفاتيكان عام ١٩٩٤. وقد صرح به أيضاً فى زيارته للأزهر وفى أماكن أخرى كذلك.

يرى بعض الكتاب الغربيين أن الحوار ينبغى ألا يعدو نطاق المصالح، أى المادية وذلك تمشيا مع السائد اليوم فى العلاقات الدولية، يعنى تعامل الدول القائم على المصالح أو المنافع الاقتصادية. ومثل هذا الكلام يخرج بالحوار عن الهدف المنشود منه وهو المصلحة الإنسانية الأسمى والأبقى وليست المصالح المادية التى تقوم على الانتهاز والاستغلال.

الخاتمـــة

تتبع هذا البحث الجذور التاريخية للعلاقة الإسلامية الغربية وما نتج عن هذه الجذور من ثمار أو أضرار، ومن خير أو شر، وبينا بالأدلة الدامغة أن الحروب الصليبية قد أفادت الغرب ليس من الناحية العسكرية أو السياسية، وإنما من الناحية العلمية والحضارية، وأن هذه الحروب لم تقم بغرض دينى، وإنما قامت لأغراض أخرى أبعد ما تكون عن الدين، وآداب الدين، وأنها لم تكن فى خدمة نصارى المنطقة قط، بل بالأحرى كانت على حسابهم، وهذا فى حد ذاته كاف على الأقل للشك فى مدى صلاحية التبريرات الصليبية والعلمانية لهذه الحروب أو فى اعتبار هذه الحروب دينية مساوية للجهاد عند المسلمين كما حاول برنارد لويس وغيره أن يطبعه فى ذهن القارئ[1]، كما يحاول بعض مدعى التنوير أن يروجوا له فى بلادنا. إن علاقتنا بالغرب المسيحى بالرغم من ذلك علاقات دينية وتاريخية لها أصولها القوية فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وفى التقاليد الإسلامية والعربية، فقد تكلم القرآن عن أنبياء الله والكتب الإلهية السابقة على القرآن.

وإن هذه العلاقات لم تنقطع قط حتى فى أحلك الظروف وأشدها خطرا. وإننا لكى نبقى على هذه العلاقة وما يترتب عليها من مصالح، وما يدرأ بسببها من مفاسد، ينبغى علينا أن ندخل فى حوار بدلاً من أن يواجه بعضنا البعض بالحديد والنار، وأن

(1) Bernard Lewis Islam and the west Oxford university press 1993 PP. 3 ff

نتبادل الأفكار والآراء بدلا من الاتهامات والشكوك، وهذا بالقطع سوف يعود على الإنسانية كلها بالأمن والسلام. تبين من البحث أيضا أن أوروبا ظلت تعانى من مرض التعصب المذهبى العضال، فقد كانت الكنائس متناحرة، والطوائف المسيحية متلاعنة، يكفر بعضها بعضا ويقتل بعضها بعضا، بل إن أوروبا حتى الآن لا تملك نموذجا للحكم، أو قانوناً يصلح لتنظيم شئون الأقليات بها وذلك قياسا على فقه أهل الذمة فى الإسلام، وأكرر أن أوروبا لا تزال فى حاجة إلى الاعتراف بالآخر والتعايش معه واحترام دينه وتقاليده، إن الكنيسة الكاثوليكية للأسف لم تغير وجهة نظرها السلبية تجاه الإسلام بصورة كاملة إلى الآن إذ أنها بينما تعترف بالإسلام كأحد طرق الخلاص أو الهداية فإنها لا تزال تحجم عن الاعتراف بمحمد ﷺ كرسول، وهاد، إلى هذا الطريق، وهى لا تعترف كذلك بالقرآن الكريم ككتاب سماوى كما يعتقد فيه المسلمون، ولا زلت أذكر كلمة راعى كنيسة سان فورد بجنوب غرب إنجلترا التى قال فيها كتعليق على كلمتى «لو كان الأمر بيدى لأعلنت باسم الكنيسة نبوة محمد ونبوة جورو ناناك الزعيم الهندى للسيخ. وقد اعترضت عليه بشدة فى التسوية بين محمد النبى الخاتم ﷺ ، أعظم شخصية عرفها التاريخ، وأول بان لأمة ولحضارة دينية إنسانية عالمية خالدة، وجورو ناناك الذى هو مجرد زعيم طائفة دينية هندية من آلاف الطوائف فى العالم بغض النظر عن طبيعة دعوته ومراميها، وكان ذلك عام ١٩٨٦.

وقد بينا بجلاء تام أن الحوار والجدل والحُجة والبرهان من مواد القرآن الكريم، ومن وسائل الدعوة الإسلامية والخطاب الإسلامى، وبالطبع فإن ديانة عالمية كالإسلام لابد لها من الاعتماد على الحوار كآلية مساعدة وفعالة فى مخاطبة الآخرين، لأن الحوار هو مخاطبة العقل للعقل للوصول إلى الإقناع بمبدأ أو رأى ما، وإلى التوصل إلى الحقائق بالطرق العقلية الملتزمة بالآداب والقيم الخلقية الرفيعة ولا داعى للتخوف من الحوار مع الغرب فإن الحوار قديم فى الإسلام، قدم الإسلام نفسه. وإنه لكى نضمن حوارا ناجحا لابد أولا من معرفة ما نريد ومعرفة ما يراد منا قبل الدخول فى الحوار، لا بد من دراسة العقلية التى نتحاور معها فى إطار بيئتها وبنيتها الدينية، والثقافية والاجتماعية، ومعرفة نطاق معتقداتها ورؤاها الخاصة والعامة، وقبل ذلك وفوق ذلك كله معرفة ما يوافقها وما لا يوافقها من حيث الميول والنوازع والعادات والتقاليد، وإلا لكان الحوار كطاحونة تدور فى الهواء تجعجع ولا تعطى طحناً. وإذا أردنا نحن المسلمين أن نصل إلى إقناع الطرف الآخر بديننا وقضايانا علينا أولا أن نحاور أنفسنا، وأن نتعرف على ضعفنا وعجزنا ونعالجهما، هذا وإلا استخف بنا الطرف الآخر فى الحوار، وتعامل معنا من برج عاج. إنه ينبغى أن نكشف عن عيوبنا بصراحة، وأن نواجه أنفسنا أولا بالحقائق، وأن نكتشف ذاتنا، قبل أن نحاول اكتشاف خصمنا.

إن بضاعتنا الفكرية للأسف لا تزال إلى حد كبير غير ملائمة للذوق الغربى، وإن عدد القادرين من بيننا على إجراء الحوار

بتقنياته ومهاراته المعقدة قليل جدا كذلك ولا أدرى لماذا حدثت الانتكاسة بيننا؟ هل كان ذلك بسبب انكفاء الغرب على ذاته أو لتعاليمه وتساميه على الشعوب الأخرى، أم ليأس المسلمين من الوصول إلى نتائج مشجعة وحاسمة من خلال الحوار، على أى حال ومهما يكن الأمر، فإن الإسلام يفتح ذراعيه للحوار وإن الله تعالى قد ذكر صورا كثيرة للحوار فى القرآن الكريم وقد تبين لنا كيف أن الأنبياء جميعا قد حاولوا إقناع أقوامهم من خلال الحوار والجدل بالتى هى أحسن. وقد ذكرنا من قبل أن أوروبا لم تعرف تعدد الأديان، ولا تعدد الثقافات والتقاليد إلا حديثا جدا، ولم يكن من مبادئها كذلك الحوار أو المناظرة للتعرف على ما عند الآخر وتقديره، علميا وموضوعيا إلا فى العصر الحديث، وبعد أن أفادت من التجربة الإسلامية عبر العصور، لذلك لم تعرف أوروبا شيئا عما يسمى بمقارنة الأديان، أو الفقه المقارن، أو العلاقات الدولية والقانون الدولى، إلا مؤخرا، أما المسلمون فقد ابتكروا هذا الفن من الدراسة أعنى المقارنة، وطبقوه فى مجالات علمية كثيرة. وكما أوضحنا بالأمثلة العديدة فإن أوروبا لم تعرف حتى كيفية التعامل مع الطوائف المسيحية المختلفة، فضلا عن أهل الأديان الأخرى، حتى القرن التاسع عشر، وإذا ما تفحصنا دوافع الحروب الصليبية وخططها نجدها قد قامت على عكس الفتوحات الإسلامية، على العصبية والحماس المفرط والخيال الجامح، والرغبة فى المكاسب المادية، وإن الدعوة إلى تجنيد الجيوش الصليبية على ذلك النحو لم تلتزم بالأخلاق

المسيحية، ولم تكن قط بهدف خدمة المسيحية كدين، ولم تكن كذلك بهدف استرداد أرض، أو حماية مقدسات، فقد كان النصارى العرب يعيشون فى سلام دائم على هذه الأرض، كما كان حجاج النصارى يفدون إليها بصفة دائمة دون عوائق أو موانع.

وهذا اللون من التسامح لم يحصل عليه المسلمون فى أوروبا حتى هذا التاريخ، على الرغم من محاولاتهم المستمرة لاختراق الحواجز الكثيرة الموضوعة أمامهم، وهذا يظهر الفرق فى المعاملة بين المسلمين والغربيين. وفى هذه القرينة ينبغى أن نؤكد على حقيقة مهمة وهى أن نصارى العرب قد استطاعوا فى ظل الحرية العقائدية، والتسامح الدينى أن يندمجوا فى المجتمع الإسلامى، مع الاحتفاظ فى الوقت نفسه بدينهم وتقاليدهم الخاصة وقد أنتجوا بفضل هذا التسامح الإسلامى أدبا راقيا، وعلما نافعا شاركوا به فى بناء النهضة الإسلامية، كما أصبحوا جزءا لا يتجزأ من النسيج الاجتماعى الكبير، ومن العبقرية العربية الإسلامية، والإبداع الحضارى للمجتمع المسلم. وإنه لمن المعروف تاريخيا أن اليهود فى أسبانيا لم يظهر لهم تأثير فى التاريخ ولا أدب ولا فلسفة إلا فى ظل الإسلام والحكم الإسلامى، فقد حافظ المسلمون على حقوق اليهود وحرياتهم فى أسبانيا الإسلامية إلى درجة قل أو انعدم أن يكون لها نظير.

ومن المفيد أن نعيد طرح هذا السؤال الذى أثاره من قبل كريستوفر ديكى «هل تستطيع أوروبا أن تتغلب على شعورها بالكراهية للمسلمين وأن تتعايش مع الجاليات المسلمة التى تتزايد باستمرار، والتى اتخذت من أوروبا وطنا لها؟

مستحضرا فى ذهنى الحواجز النفسية، التى لا تزال للأسف تقف بيننا وبين الغربيين، أقول إن منا من يخاطب الغرب بصفة عامة بلسان غليظ، وحاد أحيانا، كما أننا نحاربه بسيف بارد وغير قاطع فى بعض الأوقات، وقد يبالغ بعضنا كثيرا فى مجاملة الغربيين ظنا منهم أن ذلك من ضرورات أدب الحوار، والطريقة الأولى منفردة ومثيرة للاشمئزاز، والثانية غير مجدية وغير مؤثرة، والغلظة فى الخطاب بصفة عامة تعكر وتنفر، كما أن الأدب المفرط فى الخطاب يضلل ويثبط إن طرح الحقائق لا يعنى سوء الأدب، كما إن إغفال المبادئ الأصلية وتجاهل الحقيقة لا يعد تأدبا، ويعجبنى هنا قول أحد الزعماء الروحيين بشمال أفريقيا وقد سئل عن معنى الأدب: «الأدب هو أن تحد سيفك جيدا حتى إذا ما اضطررت أن تقطع به عضوا قطعته دون إيلام، وهو بالإنجليزية.

It is to sharpen your Sword So that when you have to cut a limb it does not hurt.

وهكذا يجب أن نحد أسلحتنا العقلية، ونثقف لغتنا، وننضج أفكارنا وآراءنا، ونمعن فى تهذيب لهجة خطابنا مع الآخر، فالكلمة هى السلاح الدائم والحاسم، بل وهى مفتاح الحروب ومغالقها، وهى السفير، والبشير أو النذير بين الأفراد والشعوب.

يقول السيد حسين نصر فى التعليق على تعريف الزاهد المسلم لكلمة الأدب.

What is lacking in the Islamic world today is a thorough examination and careful criticism of all that is happening in the modern world without such criticism

nothing serious ever be done in the business of confronting the west[1]

هذا هو المطلوب منا من مواقف الحوار مع الغرب والرد على تحدياته للإسلام والمسلمين، إننا نملك المقومات والوسائل المادية والأدبية والعلمية التى تؤهلنا للدخول فى حوار مع الغرب، ولكن يجب علينا أن نحشد هذه الطاقات والمقومات، وننظم صفوفنا كذلك، ونوحد آراءنا وأن نسند المهام إلى القادرين منا على القيام بها، لا إلى الأدعياء والمتقحمين، فإن أخطاء المتقحمين تحسب على الإسلام، لأننا جميعا مسلمون فى نظر الغرب، وكلنا محمد من وجهة نظرهم. لابد من توحيد الخطاب الإسلامى ولا بأس بتنوع الأساليب وطرق الحوار، وعلينا أن ننحو منحا أكثر عقلانية فى مخاطبة الآخرين، وأن نعد لذلك فى مناهجنا وبرامجنا التربوية والتعليمية والإعلامية حتى ينشأ الصغار منا على حب الحوار والالتزام بآدابه وعلى إتقان فن الاستماع للآخر وتقويم أفكاره ومواقفه باقتدار وإنصاف. وهنا أجد تدعيما كاملا من قرارات المؤتمر الثامن للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية والذى جاء فى البندين التاسع والعاشر منه الدعوة إلى التنسيق بين الجهود الحكومية وغير الحكومية التى تقوم على شئون الدعوة الإسلامية داخل البلاد الإسلامية وخارجها، وبذل المزيد من الجهد فى تزويد المسلمين غير الناطقين باللغة العربية،

(1) The Western World and its Challenges to Islam in islam its Meaning and Massage by khurshid Ahmad London 1980 PP. 217-241.

والأقليات الإسلامية خارج العالم الإسلامى بالصورة الصحيحة للإسلام وحضارته، وترجمة ذلك إلى اللغات الأجنبية الرئيسية.

يناشد المؤتمر الدول الإسلامية وكل الهيئات والمنظمات التى تتولى شئون الدعوة الإسلامية بذل المزيد من الجهود لإعداد دعاة ملمين باللغات الأجنبية الرئيسية وقادرين على عرض مبادئ الإسلام الصحيحة وما يتضمنه من حلول لمشاكل العصر مع التركيز على التعايش السلمى بين الديانات والحضارات.

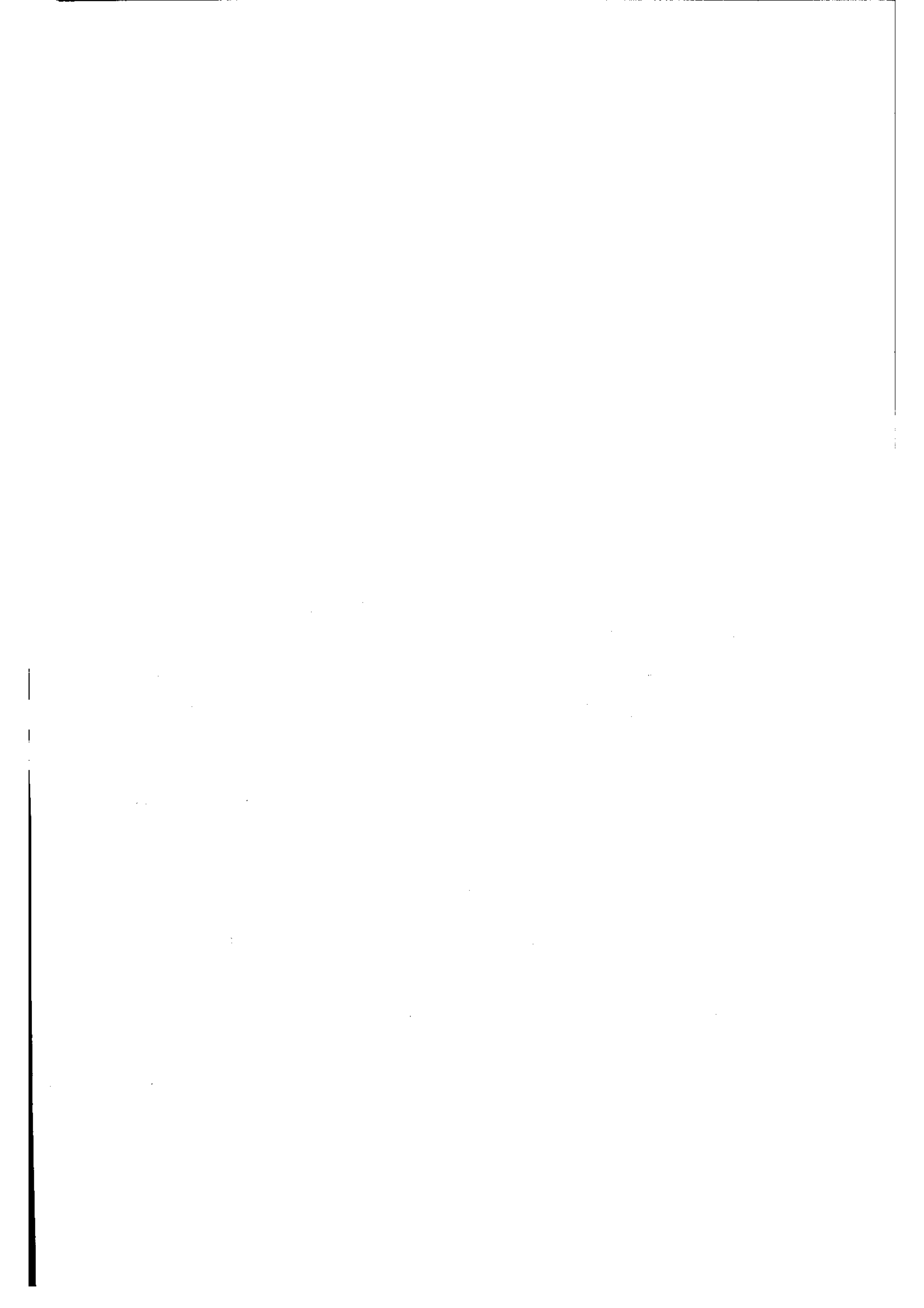
وإذا كنت أدعو إلى الاستنارة والعقلانية فلست أعنى بذلك أن نستورد الأفكار الجاهزة والأنماط الغربية المعدة للتصدير، فإنه لن يكون ثمة حوار بل تبعية وتقليدا للآخرين. ونسخ آراء الغير وأفكارهم ليس فيها عقلانية ولا استنارة، وإنما اتكالية وتبعية وتقليد واستمراء للتقليد. وبمرور الزمن سوف يكون التقليد عبودية مطلقة، ورقا مؤبدا، ولست أعنى كذلك أننا ينبغى أن نعيش فى كهف مظلم أو معتم، ونرفض مجموع ما عند الغرب كلا فإن لدى الغرب علوماً وآداباً وصناعات نحن فى حاجة إليها وهذا مما يدعو إليه ديننا ويأمر بتعلمه والانتفاع به، ولو كان رسول الله ﷺ حيا لحض على تعلمه والإفادة منه.

وفى هذا الكتاب أوردنا شيئا عن شكوى جمهور المسلمين فى الغرب وبعض علماء النصارى كذلك من أن بعض الخطباء المسلمين العاملين فى حقل الدعوة فى الغرب يعمل بعقلية تقليدية وبأسلوب منفر، قد لا يرضاه حتى خاصة المسلمين أنفسهم فضلا عن الغربيين الذين يجب أن نؤلف قلوبهم على الإسلام،

ونستميلهم نحو المسلمين، لا أن نزيدهم خوفاً ونفوراً من الإسلام وكراهية للمسلمين وتوجسا منهم، إننا للأسف نترك الدعوة فى الغرب للارتجالية إلى حد كبير، ونتركها كذلك نهبة للضعاف الذين لا يستطيعون التعامل مع العقلية الغربية، وكل بضاعتهم من العلم والعمل أمانى، وتطلعات خاصة لا تخدم الإسلام، ولا تساعد على إقالة عثرة المسلمين فى الغرب.

وأخيرا فإنه من الضرورى أن تحترم أوروبا الإسلام وأن تعامل المسلمين كأصحاب رسالة عالمية، وبناة حضارة إنسانية راقية، وكمساهمين فاعلين فى تقدم العالم ورخائه وذلك لما لديهم من طاقات وإمكانات إنسانية وطبيعية هائلة، وأن تضع هذا كله فى حسبانها عند الدخول فى حوار أو علاقة مع المسلمين، وعلى المسلمين فى نفس الوقت أن يرتفعوا بأنفسهم إلى مستوى الحوار مع الغرب وأن يطوروا فى أساليب هذا الحوار ويوسعوا مجالاته، ويعمقوا أبعاده وذلك على قاعدة الإسلام الحنيف الذى يشجع على التقارب والتفاهم والتعاون بين شعوب العالم وذلك على مبدأ البر والتقوى.

وفى خاتمة المطاف أوصى بتشكيل لجنة عليا للدعوة والحوار بالتعاون مع الأزهر والأوقاف والمنظمات الإسلامية التى لها حضور فى الخارج لتنظيم العمل الدعوى فى الغرب وتنشيط الحوار مع غير المسلمين وتطويره والارتفاع بمستوى الدعوة والدعاة، وأقترح كذلك أن تمول هذه اللجنة العليا من أموال زكاة المسلمين فى جميع أنحاء العالم.



محتويات الكتاب

الموضـــــوع	الصفحة
مقدمة	٥
الباب السادس	
نماذج من الكتابات الغربية حول الإسلام والمسلمين	
عرض ونقد	١٣
الباب السابع	
الحـــوار	
الموضوع والمتطلبات والمشكلات	١١٥
الباب الثامن	
الحوار الإسلامى المسيحى	
دراسة وتقويم	١٤١

مطابع [illegible] التجارية - قليوب - مصر